

د. حامد بن أحمد الطاهر البسيوني



الطبعة الأولى :
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع : ٧٦٦٩ / ٢٠٠٧

الناشر
مكتبة الأصولي دمنهور
☎ ٠٤٥٣٣١١١٣٨ - ٠١٠٥٤٠١٣٢٤
دمنهور - خلف عمر أفندي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الموتُ . . . حقيقةٌ لا وَهْمٌ !!

يقول الحسن البصرى : « ما رأيتُ حقًّا أشبَهَ بباطلٍ مِنَ الموتِ »

وهذا التصوير تصوير دقيق لموقف الناس من هذه الحياة وما بعدها ، فإن البشر جميعا مع يقينهم باستحالة الخلود على ظهر الأرض ، ومع إحساسهم بأن الموت يقض المجامع ويحصد الآجال ، قلما يفكرون فى غدهم المرتقب ، ويستعدون له الاستعداد اللائق به ، لذلك كرر اللّه تعالى الإنذار بيوم اللقاء :

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين :٦]

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [النبأ : ٤٠] .

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة : ٦] .

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ [الحاقة :١٨] .

إن القرآن الكريم قد أفاض فى ذكر مشاهد القيامة ، وأهوال الحشر والنشور ، وصور العذاب الأليم ، والنعيم المقيم ، حتى لا يذهل البشر وراء مآربهم ومطالبهم عن يوم الحساب ، وحتى لا يستغرقوا فى آمالهم ، وآلامهم فينسوا المستقبل الضخم الذى ينتظرهم عند اللّه تعالى .

إن ما أراده القرآن تحديدا هو : (التيقن من الموت وأنه حق ، مثل التيقن بأننا موجودون فى هذه الدار) .

إن الموت حقيقة لا ريب فيها ، ويقين لا شك فيه ، فلا قدرة لأحد على إنكاره أو تكذيبه ، أو حتى التلميح بأنه وهم من الأوهام التى تعيشها البشرية عبر تاريخها ؛ إذ الكل يذهب فى سفر بلا عودة للدنيا تارة أخرى .

فالكل سيقف أمام هذه اللحظة التى جعلها اللّه تعالى قدرا محتوما على كل حى ما سواه عز وجل ، فهى النهاية الأخيرة التى يقف أمامها الصغير والكبير ، والشريف والوضيع ، والغنى والفقير ، والصحيح والسقيم ، والزاهد والعابد ، والمقر والجاحد كما قال تعالى : ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص : ٨٨] . ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران : ١٨٥] ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن : ٢٦، ٢٧] .

بل إن اللّه تعالى هو القائل : ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجمعة : ٨] .

إنها إذن اللحظة التى لا فرار منها ولا فكاك لحظة ملاقيكم .

فعن اليمين والشمال : ملاقيكم !

ومن الأمام والوراء : ملاقيكم !

ومن أسفل منكم ومن فوقكم : ملاقيكم !

إنه واعظ صامت لا ينطق ، لا تمنع منه الجنود ، ولا يتحصن منه فى الحصون ، مدرك الناس أينما كانوا ، كل نفس ستذوقه شاءت أم أبت ، وقد تحقق العلم به ، لكن جهل الناس حقيقة الموت جهلا كاملا ، ونسوا العمل لمثل هذه اللحظة ولسان حال الميت ينادى :

لمثل مصرعى فاعملوا ! . . . لمثل مضجعى فأعدوا !

ففى كل يوم يشيع الناس جنازة يشهدونها غافلين عن تلك اللحظة التى سيشهد فيها الناس جنازته محمولا على الأعناق جاهلا بتلك اللحظة متى هى ؟ أو على أى حال سيكون ؟!

إن الموت لا يحتاج إلى دليل لإثبات أنه حق لا يتطرق إليه أدنى شك بل

إننى لأزعم أن الموت حقيقة هذا الوجود التى لا تقبل مزايدات ، أو ريبا أو شكوكا كما هى بقية الحقائق ، فكل الفلسفات تقف أمام فلسفة الموت عاجزة عن فهمها أو إدراكها أو التعامل معها ، ويحكى ابن السماك الواعظ فيقول : بينما صياد فى الدهر الأول يصطاد السمك ، إذ رمى بشبكته فى البحر ، فخرج فيها جمجمة إنسان ، فجعل الصياد ينظر إليها ويبكى ويقول :

عزيز فلم تترك لعزك !!

غنى فلم تترك لغناك !!

فقير فلم تترك لفقرك !!

جواد فلم تترك بجودك !!

شديد فلم تترك لشدتك !!

عالم فلم تترك لعلمك !!

يردد هذا الكلام ويبكى !!

كأنَّ لسان حاله ينطق قائلا :

ماذا وراء الموت ؟ ما سرُّ الحياة ؟ فقد تاهت بأسرارها الألباب والفِكَرُ

يحكى الإمام القرطبى فى التذكرة : أن أعرابيا كان يسير على جمل له فخر الجمل ميتا ، فنزل الأعرابى عنه ، وجعل يطوف به ويتفكر فيه ويقول : مالك لا تقوم ؟ . مالك لا تنبعث ؟ . . . هذه أعضاؤك كاملة ، هذه جوارحك سالمة ، ما شأنك ؟ . . . ما الذى يحملك ؟ . . ما الذى كان يبعثك ؟ . . . ما الذى صرعك ؟ . . . ما الذى عن الحركة منعك ؟

ثم تركه وانصرف متفكرًا فى شأنه ، متعجبًا من أمره[1] .

---

(١) التذكرة (١/ ٢٩) ط دار الفجر الحديث - بتحقيقنا .

كأنَّ لسان حاله هو الآخر يقول :

يا ويحك من فارس ما باله ذهبت مروته ولـمَّا يكـلم[1]

هـذى يـداه وهـذه أعـضـاؤه ما منه من عضو غدا بمثلم

لقد عبر الأعرابى عن تلك الحقيقة التى لا طاقة لنا بفهمها ، ولا قدرة لنا بالبحث عنها وفيها ؛ إذ النتيجة معلومة من البداية : لا نتيجة .

إن جحافل الموت تسير لا توقفها عجلة الحياة ، بل هى الأقدار على إيقاف عجلة الحياة ، ترى الميت أمامك ، إنسان كامل الخلقة كما كان لكنه :

عين ولا بصر . . . أذن ولا سمع . . . دماء ولا تدفق . . . قلب ولا نبض يد ولا حراك . . . قدم ولا مسير . . . أنف ولا نفس يجرى فيها .

وهنا تتوقف قدرات البشر عن العمل ، وتعجز أفهامهم جميعا عن التعامل مع سر هذه اللحظة الموحشة الأليمة التى يطل فيها الفراق بشبحه وبرأسه البشعة يخبرنا أننا الآن فى آخر مشهد دنيوى لهذا الفقيد الذى سيواريه الثرى عما قريب ، فما هى إلا لحظات ويتبارى الأحباب والأصدقاء فى تغسيله وتكفينه ، ثم إهالة التراب عليه فلا شعاع من نور ، ولا نسمة من هواء تتسرب إلى جثة الميت : وتلك هى كرامته وذلك هو إكرامه !! .

لقد بدأت لحظة انقطاع الإنسان عن الدنيا مبكرة دون أن نشعر ، بل ربما شعرنا لكننا لا نرى ، جاءت حينما بدأت سكرة الموت ، ثم بلوغ الروح الحلقوم ، ثم نهاية الإنسان مع خروج الروح ، يقول اللَّه عز وجل فى ذلك : ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة : ٨٣- ٨٧] .

---

(١) يكلم : يجرح .

لقد تكشفت حقيقة الموت إذن للميت ، بدأ فى رؤية الملائكة بيض الوجوه أو سود الوجوه ، معهم البشرى بالجنة أو النار ، معهم ملك الموت ، معهم الحقيقة ، وهنا لن يعود تارة أخرى ، بل لن يستطيع أحدٌ منا إعادته ، بل الكل يقف عاجزًا مفتخرًا بعجزه أمام هذه اللحظة الفاصلة التى تعبر عن انتقال من دار إلى دار ، وانقطاع لتعلق الروح بالبدن ومفارقتها إياه ؛ ولذلك كان من باب تحدى القرآن للمشركين أنه طلب منهم إرجاع الروح تارة أخرى ، ولا قيود تقيدهم ، ولا شىء يعوقهم ، بل مطلقوا السراح ، أحرار ، لكن حقيقة الموت قهرت الجميع لا محالة فى ذلك ؛ قهرت الميت ومن حوله من جلسائه الذين يحضرون وفاته واحتضاره .

إن الموت إذن قدرة من قدرات اللَّه تعالى القاهرة الغالبة التى لا يعتصم منها فى البروج المشيدة : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء : ٧٨] .

وانظر إلى ذلك التعبير القرآنى الفريد : ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران : ١٥٤] . إذن الموت يلاحق ، والإنسان يُسِّلم له قياده دونما مقاومة ، إنه سيبرز راضيًا طائعًا ؛ لأنه معمى العين عن مصيره وسن موته ، والأرض التى سيدفن فيها ، بل هو جاهل بها تماما كما قال اللَّه تعالى : ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان : ٣٤] إنها - أى النفس - ستخرج طائعة ، يلاحقها الموت ، وهى لا تدرى فى أى أرض سيكون حتفها لكنها تخرج راضية . بل قل : ناسية أن الموت يلاحقها ، ولو تذكرت النفس أنها ستموت لما خرجت ولما أكلت ، ولما شربت ؛ ولذلك يبدو النسيان فى أحوال عدة نعمة من نعم الحق عز وجل على ابن آدم كى يستطيع مواصلة الحياة والاستمرار فى تعمير الأرض دونما منغض يجذبه ناحية القعود والنسيان ، وهكذا يبدو الموت طرفًا من غيب اللَّه المكنون ، وعجبًا

يقف العقل مدهوشًا مشدوهًا أمامه لا يملك إلا السجود طائعًا .

لقد توصلت البشرية إلى درجة عالية وراقية من العلم ربما لم تصل إليه فى مرحلة من مراحل تاريخها السابق ، بَيْدَ أنها وقفت عاجزة أمام هذه اللحظة : لحظة ملاقيكم .

لقد استنسخ البشر من الكائنات كائنات أخرى تماثلها ، لكن لم تستطع أن تقف أمام جحافل الموت حينما اجتاحت هذه النسخة ؛ لأنهم ذوو طاقة محدودة ستظل إلى الأبد حبيسة النواميس الكونية ، هذه هى الأم التى تحب وليدها ، ربما عرض عليها أن تلقى نفسها فى النار من أجل سلامة ولدها ففعلت ، لكنها أمام حقيقة الموت لا تستطيع أن تدفعها ولا أن تردها ، بل تعجز فتستسلم إما للصبر أو الحزن والجزع .

وطالما تمنت الأمهات وهن يرين الصغار من فلذات الأكباد يجود كلٌّ منهم بنفسه ، تمنت كل واحدة منهن لو ماتت بدلا من ولدها ، لكن حتى هذه الأمنية لها وقت ليس بيدنا ولا برغبتنا ، وإنما هو موقوت معلوم أمام الحق عز وجل وبيده ، لا يدرك بالتمنى ، ولا بالدعاء على النفس بالموت ؛ لذلك نجد النبى ﷺ فى موقفين مختلفين :

الأول : لما مات ولده الصغير إبراهيم عليه السلام بكى وقال : « تَدْمَعُ العَيْنُ ، ويَحْزَنُ القَلْبُ ، وَلا نَقُولُ إلَّا ما يُرضِى ربَّنا ، واللَّهِ يا إبراهيمُ إنا بكَ لَمَحْزُونُونَ »[1] .

فلا هو يملك أن يرده إلى الدنيا وهو صغير يجود بنفسه ، ولا هو يملك أن يظهر الجزع ، بل راضٍ بقضاء ربه عز وجل ، لكن لا يمنع هذا ولا ذاك

(١) متفق عليه : البخارى (١٣٠٣) فى الجنائز - مسلم (٦٢/ ٢٣١٥) فى الفضائل .

من الحزن ، ولكن لماذا الحزن ؟ لأنه لن يملكَ ردَّه ، ولن يملك حمايته من سيف الموت البتار الذى يحصد الرقاب حصدًا دون هوادة ، لا فارق بين صغير وكبير ، أو جنين ورضيع ؟ وكأن الموت قد جُرِّد من كل عاطفة إلا طاعة أمر ربه ، ثم إنه رحمة ، فمن يدرى لو عاش ما كان حاله ، وما سيكون ؟! إن النبى ﷺ من أجل هذا بكى ، ثم من أجل فراق صغيره الذى لن يراه إلا حينما يُكتب عليه الموت ، ثم هو لا يدرى متى يموت ؟ ومتى يلحق به ؟ فسالت دمعته رحمة بالصغير ، ولئلا يتفطر كبده ، وينشق قلبه .

الثانى : يوم أن أرسلت له بنتٌ من بناته وولد لها يموت ، فبعث إليها أن تقول : « إنَّ للَّهِ ما أخَذَ ، وللَّهِ ما أعْطَى ، وكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُ بِأَجَلٍ مُسَمَّى ، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ »[١] .

إنه رسول اللَّه ، أحب خلق اللَّه إلى اللَّه ، أبوها ، لكن لن يملك إعادته إلى الدنيا تارة أخرى فلذلك لم يذهب ، ولذلك أمرها بالصبر ، ولكأنى به عليه السلام يأبى الذهاب حتى لا يرى صغيرا آخر يجود بنفسه ، لكنها عزمت عليه ، فذهب ففاضت عيناه وهو يرى الصغير فى حجره قد تَقَعْقَعَ نفسه ، وهو يجود بروحه - أى تتحرك نفسه وتضطرب - حتى مات الصغير فى حجر النبى ﷺ ، وهو لا يملك له إلا الدعاء ، ثم الأمر بالصبر والثبات لأمه .

وربما احتجنا إلى موقف ثالث ألا وهو يوم أن حدث النبى ﷺ - وهو فى مرض الوفاة - فاطمة الزهراء عليها السلام أنها أول أهله به لحوقًا بعد موته ، فتبسمت[٢] عليها السلام ، والسؤال : لماذا تبسمت ؟! .

إنها لن تستطيع المكوث بعده فى الدنيا ، لن تقدر على البقاء ، لن تطيق

(١) متفق عليه : البخارى (١٢٨٤) فى الجنائز ، مسلم (٩٢٣) فى الجنائز .

(٢) متفق عليه : البخارى (٦٢٨٥-٦٢٨٦) فى الاستئذان ، مسلم (٢٤٥٠/٩٩) فى فضائل الصحابة .

ألم الفراق ، ستفطر الدموع قلبها ، سيقتل الحزن بسمتها ، ستتمنى الموت ، فقد جاء الموت الآن حبيبًا ، جاء على حاجة فانصرفت معه ، ولو بقيت عمرها كله تتمنى أن تموت فلن تموت إلا حين تأتى لحظتها المكتوبة فى قدر اللَّه تعالى ، فقد جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فكأنما أعطاها ربها الأمنية قبل أن تتمناها ، وقد جاء الموت فسُرَّت ولم تحزن ؛ إذ ألحقها بأبيها عليه السلام .

كم من الآباء يموت ابنه أمامه فلا يملك له شيئًا !

كم من عزيز على قلوبنا ترك الدنيا ونحن فى حاجة إليه !

كم من يتيم رأى أباه أو أمه أمامه يقضيان نحبهما وهو يفكر فى مصائب الدهر التى ستلحق به ، لكنه لم ولن يدفع الموت عنهما !

كم من أب كنا نحتاج إليه ، لكنا رأيناه على فراش الموت مستسلمًا ونحن معه قد استسلمنا !

كم من محب رأى حبيبه يسبقه إلى الآخرة فلم يصد عنه الموت !

بل كم من عالم احتجناه قضى نحبه فما رددنا عنه الموت !

وكم .. وكم .. ولكنه الموت أعجوبة المقادير ، ولكنها لحظة (ملاقيكم) لا فرار منها !! .

إن الدروع تُصنع لتحمى من الموت ، والحصون تبنى وتشيد ليُختبأ فيها من الموت ، والأمصال واللقاحات والتطعيمات تؤخذ للحماية من الموت ، والتعليمات تلقى للوقاية من الموت ، وتتخذ كل الوسائل لمنع هذه اللحظة الحاسمة ، لكن تأتى لحظة ملاقيكم لتنهار أمامها الحصون ، والقلاع ، والأبراج ، ويعجز الأطباء ، وتتهاوى القدرات أمام هذا القدر العجيب .

وإذا الـمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفارَها   أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تَنْفَعُ[١]

وذلك لأن الموت حقيقة لا وهم !!

وهذا جاهلى من جهال العرب يقر بتلك الحقيقة فيقول :

لعَمْرُكَ إنَّ الموتَ ما أخطأَ الفَتَى   لَكَالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنياهُ باليدِ[٢]

مَتَى ما يَشَأْ يَوْمًا يَقُدْهُ لِحَتْفِهِ   وَمَنْ يَكُ فِى حَبْلِ الْمَنِيَّةِ يَنْقَدِ

فالكل فى حبل المنية ، والكل ينقاد حسبما تحكم الأقدار التى تقود حتمًا إلى حتفٍ لا فرار منه .

وَمَنْ نَزَلَتْ بِساحَتِهِ الْمَنايَا   فَلَا أَرْضٌ تَقِيهِ وَلَا سَماءُ

---

(١) المنية : الموت . أنشبت أظفارها : كالحيوان المفترس يمسك فريسته بمخالبه .
ألفيت : وجدت .
تميمة : ما يوضع فى الرقبة كأنه الحجاب لدفع العين والمصائب .

(٢) الطول : الحبل الطويل الذى يربط به الفرس ويرخى له فيرعى ولا يستطيع الهرب .

الموت . . . المصيبة والغفلة !!

١- الموت . . مصيبة :

وهذه حقيقة أخرى لا مراء فيها ، فالموت من أعظم المصائب سماه اللَّه تعالى مصيبة فقال تعالى : ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ [المائدة : ١٠٦] قال القرطبى : فالموت هو المصيبة العظمى ، والرزية الكبرى . قال علماؤنا : وأعظم منه الغفلة عداه ، والإعراض عن ذكره ، وقلة التفكر فيه ، وترك العمل له ، وإن فيه وحده لعبرة لمن اعتبر ، وفكرة لمن تفكر[١] .

ولقد قال اللَّه تعالى : ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة : ١٥٥ - ١٥٧] . إذن فنقص الأنفس بلاء ومصيبة ، بل هى الأعظم بين المصائب على الإطلاق ؛ إذ فقد المال قد يعوض ، وفقد الثمرة قد يداوى ، والخوف قد يذهب ، والجوع قد ينتهى ، إلا النفس فإنها إذا فقدت فلن تعود تارة أخرى ، ومسير الموت لا رجعة له ، إذ هو تذكرة لسفر لا رجوع له ، من أجل هذا أمر اللَّه المؤمنين بالصبر على هذه المصيبة ؛ لأن اللَّهفة ، والدمعة ، والجزع لن يعيد شيئًا منهم ميتًا فقدناه ، بل ربما كان سببًا فى عذابه .

لما توفى أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى - رضى اللَّه عنه - وكان من أوائل المسلمين بمكة ، وأول من هاجر إلى المدينة ، جاء رسول اللَّه ﷺ إلى أم سلمة يعلمها فقال : « مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيقولُ : إِنَّا لِلَّهِ وإِنَّا إلِيْهِ راجِعونَ . اللَّهُمَّ أَجْرُنِى فِى مُصِيبَتِى ، وَأَخْلِفْ لِى خَيْرًا مِنْها . إِلَّا آجَرَهُ اللَّهُ

(١) ذكره القرطبى (١/٨) فى التذكرة .

تَعالَى فِى مُصِيبَتِهِ ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْها »[(١)] .

إذن سمَّى فَقْدُ أبى سلمة - رضى اللَّه عنه - مصيبة ، ثم أمر بالصبر والتسليم عند هذه المصيبة التى تقطع نياط القلب ، وتحرق الفؤاد ، وتسقى الحزن كئوسًا يتجرعها أولياء المفقود وأحبته ، حتى صار الحزن فى القلوب كجمرة متوقدة متوهجة إلا أنَّ الذى يطفؤها هو دمعة الصابر الراضى ، وهو ما يعبر عنه موقف سليمان بن عبد الملك لما توفى ابنٌ له فقال لعمر بن عبد العزيز - رضى اللَّه عنه : أرى فى قلبى حسرة لا تطفؤها إلا عَبْرَةٌ .

فقال عمر : اقضها يا أمير المؤمنين ، فقد دمعت عينا رسول اللَّه ﷺ على إبراهيم ، ولم يقل ما يُسخط ربه . فبكى سليمان حتى كادت نياط قلبه تتقطع .

لقد أحس الفضل بن العباس - رضى اللَّه عنه - يوم كان يغسل النبى ﷺ بمرارة الفقد ومصيبته فنادى قائلا :

أرحنى يا رسول اللَّه فقد قطعت منى الوتين[(٢)] .

والوتين : عرق فى القلب إذا انقطع مات الإنسان .

تلك هى المرارة التى تُشعر بها مصيبة الموت ؛ ولذلك قالوا : « ليس لأيام الرزية دواءٌ إلا الصبر » ولأن الموت مصيبة فقد أمر النبى ﷺ الجميع بالإكثار من ذكره حتى إذا جاء وأتى لم يكن وقعه ثقيلا ، فذكر المصيبة والاستعداد لها يخفف وقعها على النفوس ، وفى حديث عمر بن الخطاب - رضى اللَّه عنه - أن النبى ﷺ قال : « أكثروا من ذكر هادم اللذات » قلنا : يا

---

(١) رواه مسلم (٩١٨ / ٤) فى الجنائز . . وقوله : « واخلفه فى عقبة فى الغابرين » أى كن خليفة له فى ذريته الباقية . والعقب : مؤخر الرجل ، واستعير للولد ، وولد الولد . والغابرين : الباقين .

(٢) رواه ابن سعد (٢/٢٧٨) فى طبقاته وسنده مرسل .

رسول اللَّه . وما هادم اللذات ؟ قال : « الموت »[١] .

وجعل ﷺ من علامات الكيس - أى الذكاء والفطنة - ذِكْرَ الموت ، فقد سئل - كما فى حديث ابن عمر : فأى المؤمنين أَكْيَس ؟ قال : « أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا وأَحْسَنُهُم لِما بَعْدَه اسْتِعْدادًا ؛ أُولئكَ الأَكْياسُ »[٢] .

إن الإنسان يعيش حياته بين ماض ذهب لا يملك إعادته ، وبين مستقبل يرجو خيره ، ويتمنى فيه آمالا عِراضًا ، وفجأة يأتى الموت مصيبة كبرى ، ورزية عظمى تقطع هذه الآمال وتدفنها مع صاحبها تحت الجنادل والتراب .

ولم يكن الموت مصيبة لمجرد فقد الأحبة فقط ، فإن فقدهم قد يتعزى فيه بمن بقى من آلهم وذويهم ، إلا أن المصيبة الأكبر من ذلك هى تلك الحسرة الملازمة لكل ميت يموت ، إن كان طائعا ندم أن لا يكون قد ازداد من الأعمال الصالحة ، وإن كان عاصيًا مُسيئًا ندم على التفريط ونادى : ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر : ٥٦] . تمنى رضا ربه وتاب ولكن هيهات مضى زمن التوبة وانقطع : ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾[٣] [فصلت : ٢٤] . فلما تبين له أنه لا محالة إلى النار صائر نادى : ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون ٩٩ ، ١٠٠] فلما تبين أنه لا هذا نافعه ، ولا ذاك مجاب إليه ، تمنى أن لو شهد أن لا إله إلا اللَّه وفطن لسانه بها ، ولكن هيهات فقد ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ : ٥٤] .

لقد فهم الصحابى الجليل ابن عمر الآية السابقة فهمًا وافيًا حين سمعها ،

---

(١) صحيح : الترمذى (٢٣٠٧) فى الزهد ، والنسائى (٤/٤) فى الجنائز .

(٢) حسن : ابن ماجه (٤٢٥٩) فى الزهد ، الطبرانى (١٣٥٣٦) فى المعجم الكبير .

(٣) يستعتب : يطلب العتبى وهو الرضا .

فبكى بكاء مريرًا حتى أبكى من حوله ثم قال : اللَّهم لا تحل بينى وبين ما أشتهى . فقيل له : وما تشتهى يا ابن عمر ؟ قال : أشتهى أن أقول : لا إله إلا اللَّه .

إن الكل عند وقوع الموت يرى نفسه متمنيًا أن لو قال : لا إله إلا اللَّه . فكلهم يتمناها ، لكن ليس كلهم يدركها ، فهما فريقان لا ثالث لهما : فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير .

ثم يأتى عنصر آخر من عناصر هذه المصيبة : مصيبة الموت : إنها انكشاف للحقائق بالنسبة للميت وأهله ، فإنه - أى الميت - لن يغادر الدنيا حتى يعلم مصيره إلى الجنة هو أم إلى النار ؟ ومن حوله يعلمون ذلك ، ويقرأونه فى تبسم وجهه ، وإشراقه ، أو فى عبوسه وتقطيب حاجبيه ، ومحاولة تمسكه بالدنيا قدر ما يستطيع .

هذا هو على بن أبى طالب - رضى اللَّه عنه - يُحْكَى عن زوجته أسماء بنت عميس ، أنه لمَّا طعنه الخوارج جىء به على سريره ، فشهق شهقة ثم أغمى عليه فلما أفاق قال وهو يتبسم :

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر : ٧٤] ، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر : ٣٤] ، ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات : ٦١] ، ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين : ٢٦] .

ماذا رأى علىٌّ - رضى اللَّه عنه - يبدو أنه رأى ما يسره من ملائكة ربه ، وسمع ما يسره من البُشرى ، فلما تكشفت له الحقيقة لن يعود تارة أخرى ، بل لن يتسنى له العودة ، فإنه حرِىٌّ بكل من تشكفت له الحقائق ألا يعيش فى هذه الدنيا ، فلن يعيش على وجه البسيطة رجلٌ يفهم حقيقة الموت .

لقد ذُهِلَ الإمام أحمد بن حنبل - رضى اللَّه عنه - يوم قيل له : قل : لا إله إلا اللَّه . وهو يقول : لابعد ، لا بعد .

يقولها مرارا ، حتى قال له ولده عبد اللَّه : يا أبت ما يبدو منك ؟

فقال : إن الشيطان قائمٌ بحذائى عاضٌّ على أنامله يقول : يا أحمد فُتَّنى . وأنا أقول : لا بعد لا بعد ، لا حتى أموت[١] . من أين علم أحمد أنه الشيطان ؟ وكيف توفرت له معرفة الحقيقة تلك ؟ إنه قد وصل إلى مرتبة حقيقة الموت فلا بقاء له على وجه الأرض ؛ ولذا مات بعدها تاركًا لنا جزءًا من هذه الحقيقة المجهولة .

وكثيرًا ما نقف أمام من يموت نلقنه الشهادة ، وهو يقول شيئا آخر ، بعضهم يقول : البيت ، العقار ، الأولاد .

آخر ينادى : عشرة جنيهات على فلان ، وآخر يغنى ويعزف لحنًا على أكمل ما يكون اللحن ، ونعوذ باللَّه من سوء الخاتمة .

وغيرهم يقرأ القرآن حين يحتضر ، وبعضهم يذكر ربه عز وجل ، حتى قال مجاهد : ما من ميت إلا تعرض عليه أهل مجالسه الذين كان يجالس ، إن كانوا أهل لهو فأهل لهو ، وإن كانوا أهل ذكر فأهل ذكر[٢] .

هذا هو ابن عباس - رضى اللَّه عنه - حبر الأمة وترجمانها يوم أن مات وكُفِّن ترى الأمة منه عجبا ، فلقد دخل فى كفنه طائر أبيض - كما يروى سعيد ابن جبير - لم ير مثله ، ثم سمعوا قارئا يتلو لا يرونه[٣] : ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ

---

(١) إسناده صحيح : ابن الجوزى (٤٠٨) فى مناقب الإمام أحمد ، وأبو نعيم (٩/ ١٨٣) فى حلية الأولياء .

(٢) رواه البيهقى (٩٥٤٠) فى شعب الإيمان ، وابن المبارك (٩٣٩) فى الزهد .

(٣) صحيح : ابن الجوزى (١/ ٢٥٠) فى صفة الصفوة ، وقال الذهبى عن هذه القصة : متواترة .

ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر : ٢٧ : ٣٠] .

وهذا محمد بن المنكدر يوم أن مات قال عنه صفوان بن سليم : تجلَّى وجهه لكأن وجهه المصابيح . ثم قال ابن المنكدر : لو ترى ما أنا فيه لقرَّت عينك . ثم مات رَحِمَهُ اللَّهُ .

إن المصيبة تزداد سوءا إذا كان العبد من أصحاب الخاتمة السيئة من العباد الذين ختم لهم بشر ، بينما تخف وطأتها إذا رئى فيه بعض الصلاح كأهل حسن الخاتمة ، لكنها تبقى مصيبة : خفيفة الوقع كانت أم ثقيلة .

وربما كانت المصيبة فى موت الفجأة ذلك الموت الذى يأتى كأنه جبل انهار فوق الرءوس فجأة بلا مقدمات ولا سابق إنذار خاصته فى زمن كالذى نحياه ، وهو ما عبر عنه الشاعر بقوله :

بَيْنَا الفَتَى مَرِحُ الْخُطَى فَرِحٌ بِمَا ... يَسْعَى لَهُ إِذْ قِيلَ قَدَ مَرِضَ الفَتَى
إِذْ قِيلَ باتَ بِلَيْلَةٍ ما نامَهَا ... إِذْ قِيلَ أَصْبَحَ مُثْخَنًا ما يَرْتَجِى
إِذْ قِيلَ أَصْبحَ شَاخِصًا ومُوَجَّهًا ... ومُعَلَّلا إِذْ قِيلَ أَصْبَحَ قَدْ مَضَى

إن علينا أن ندرك أمرًا واحدًا : ليس للموت سن معلوم ، ولا زمن معلوم ، ولا مرض معلوم .

ولِلَّه در القائل :

كَمْ مِنْ عَليلٍ قَدْ تَخَطَّاهُ الرَّدَى ... ماتَ طَبِيبَاهُ وَماتَ الْعُوَّدُ(١)

ولكن نداء الموت واحد : الرحيل . أسلوب الموت واحد : قبض الأرواح . بيت الموت واحد : القبر .

(١) العليل : المريض . الردى : الموت . العود : من يعودونه فى مرضه - أى يزورونه .

والنتيجة فى كل الأحوال واحدة : فقد حبيب ، أو زوج ، أو أخ ، أو ولد .

فقد راح ابن الجوزى يهتف فى أعمال النفس البشرية التى تسير وقد نسيت الموت مع يقينها أنها إليه ذاهبة ، أو على الأرجح هو إليها قادم فقال رحمه اللَّه : (يجب على من لا يدرى متى يبغته الموت أن يكون مستعدًا ، ولا يغتر بالشباب والصحة ، فإن أقل من يموت الأشياخ ، وأكثر من يموت الشُّبان ، ولهذا يندر من يكبر ، وقد أنشدوا :

يُعَمَّرُ واحِدٌ فَيَغُرَّ قَوْمًا وَيُنْسَى مَن يَمُوتُ مِنَ الشَّبابِ[1]

يعيش الشاب حياته متمتعًا بكل صغيرة وكبيرة ، متلذذًا بمتع الدنيا ، لا يعتريه الفقر ولا يأتيه هم ولا كربٌ ، ولا يصاب بمرض من الأمراض ، ولكن فجأة : يموت . فترى جنازته كأنها سِرْبٌ من أسراب الطيور التى ضلَّت طريقها ما بين مكذب للطريق ، ومصدق له ، ما بين عارف بالطريق وجاهل به ، تضرب الأكف بعضها لا مصافحة بل حسرة على من مضى ، وتقع العبرة والفكرة : مات !! ونحن نحارب من أجل دنيا حقيرة ، ذهب وبقينا نحن ، أصبنا به ، ولكن تبقى المصيبة الأكبر أننا سنلحق به بعد قليل ، وربما بنفس الطريقة التى مات بها .

وَهَوَّلَ مَا أَلْقَى مِنَ الْوَجْدِ أَنَّنِى أُجاوِرُهُ فِى قَبْرِهِ الْيَوْمَ أَوْ غَدا[2]

إننى أزعم أن الموت مصيبة لا لأنه انتقال من دار العمل إلى دار الحساب فقط .

أو لتلك السكرات وتلك الأهوال التى يلقاها الميت فقط .

أو لفقد الأحبة ، والأخلاء ، والأقران فقط .

---

(١) صيد الخاطر (٢٤٨،٢٤٩) لابن الجوزى - ط -دار الفجر للتراث بتحقيقنا .

(٢) الوجد : الحزن .

أو لأننا سنصاب فى أنفسنا فقط !

لكن لأننا لا نملك دفع هذا الموت وردَّه بعد ذلك ، فالبشر فى كل يوم يموتون ، وفى كل لحظة يسرعون إلى الجنازات ، يتلقون العزاء فى هذا وذاك ، ولكن هل استطاع أحدهم أن يجد علاجًا للموت ؟ لم يجد ، ولن يجد ؛ لأن الموت ناموسا كونيا ؛ بل كتاب قدرى ، وقضاء كونى ، قضاه رب العالمين .

ولا زلت أذكر ذلك الرجل الذى قيل له : سيموت ولدك غارقًا فى البحر . فحبسه ولم يذهب طيلة عمره إلى البحر ، وبينما ولده يشرب (مرقة) إذ سقط فى الإناء رأسه ، فاختنق فمات الصغير .

وهكذا لن نملك أسبابًا تدفع الموت ، بل يمضى الصغير إذا انقضت أيامه إثر الكبير ويولد مولود ، ويبقى الناس جميعًا عرضة لسهام الموت : ما بين قائم وحصيد .

وهكذا يصبح الموت مصيبة بكل المقاييس ، مصيبة لا تساويها فى العالمين مصيبة ، ولذا احْمَدِ اللَّهَ على مصيبة الموت ، واحْمَدِ اللَّهَ على كل مصيبة إن لم تكن فى دينك ، فكل مصيبة فى غير الدين جلل ، وعزى نفسك عند فقد الأحبة بما تعزى به غيرك ، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك . . . وهذه هى قوة الصبر ، وهذا هو العزاء الحسن الجميل عند مصيبة الموت .

وتذكر عند مصيبة الموت أن الفقيد جاور فى الدنيا أعداءه ، وفى الآخرة جاور رب العالمين ، وهنا تخف آلام هذه المصيبة الكبرى ، والرَزِيَّة العُظمى .

(٢) الموت . . . الغفلة عنه

(أ) الغفلة قاتلة :

الغفلة خطر كبير يحدق بالنفس البشرية من كل ناحية ، وداء فتَّاك يقتل صاحبه ، وعاصفة مزمجرة قادرة على اقتلاع طود أشم وإذهابه أدراج الرياح ؛ ذلك لأن الغفلة تقتل الحياة فى كل قلبٍ استسلم لها ، فلا يرى صاحبه إلا هواه ، فيتبعه ولو هوى به فى الدنيا ، ثم فى النار كما قال اللَّه تعالى : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف : ٢٨] . وذلك الغافل هو الذى شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ، حتى صارت أعمال وأفعاله سفه وتفريطٌ وضياع ؛ لذلك أمر اللَّه نبيه بألا يكون له مطيعا ولا محبا لطريقته ، وألا يغبطه بما هو فيه كما قال : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه : ١٣١][١] .

إذن الغفلة هى التفريط ، والتقصير ، ونسيان أمر اللَّه تعالى . ومن كانت هذه حاله طُمست بصيرة قلبه ، وذلك قول اللَّه تعالى : ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين : ١٤] . فالغافل سيظل يذنب طيلة عمره ، وكلما أذنب كلما نكتت فى قلبه نقطة سوداء ، حتى صار كالمُنْخُل أو كالغربال لا يعى خيرًا ، ولا يثبت فيه صلاح[٢] .

وسيصبح القلب بعدها أسود من كثرة الصدأ الذى طبع عليه بسبب ذنوبه ، فيعمى عن رؤية الحق والباطل لا يميز بينهما حتى يصير كحمار أهله : فقلبٌ ولا فقه ، وعقل ولا فكر ، بهيمة فى مسلاخ بشر ، حياته ضنك ، وسعيه

---

(١) تفسير ابن كثير (١١٦/٥) ط - التوفيقية .

(٢) القرطبى (٢٤٨/١٩) فى التفسير .

مردود ، وذنبه غير مغفور ، بل هو متسكع فى دروب الزمان حين استسلم للغفلة يهدر عمره فيما لا يجدى ، ويذهب هباءً ، رغم أنه وسط النهر إلا أنه يشكو الظمأ ؛ لأنه عمى عن رؤية الحق إذ طُمِس على قلبه فهو :

كَالْعِيسِ فِى الْبَيْداءِ يَقْتُلُها الظَّمَا وَالْمَاءُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولُ

وإذا اسود القلب وطبع عليه حتمًا لن يكون له وزن ؛ لأن ماء الحياة والحياء قتلتهما الغفلة ، فلن يومض برق الغيرة فى حسه ، فقد تعطلت حواسه جميعًا ، بل لن ينبض القلب ، ولن تتحرق الأعصاب ، بل ستستبد الذنوب بالقلب حتى تصير الشهوة مطلبًا ، أو سبيلًا ، وغاية ، وهدفًا حتى يقع فى النهاية فريسة للهوى ، ومن أطاع الهوى فقد هوى ، ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان : ٤٣] ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية : ٢٣] .

إن أول أصوات الهزيمة الإيمانية هى الغفلة ، ثم طاعة الهوى ، وموت القلوب إذ جعل اللَّه عليها غشاوة فلا ترى الحق أمامها وهو أبلج ، نوره أوضح من نور الشمس ، وليس أدل على ذلك من ضلال أهل الكتاب بالمدينة ، عرفوا رسول اللَّه ﷺ فأنكروه ، وعرفه سلمان فآمن به ؛ لأنه لم يغفل كما غفلوا .

وفى مكة عمى ساداتها ورؤساؤها عن رؤية الحق ، بينما أبصره قلب بلال المتيقظ للحق دائمًا ، فلما عرف الحق واتبعه نادى لَمَّا عُذِّبَ : أَحَدٌ أَحَدٌ . كأنما امتزجت حلاوة الإيمان ، بمرارة العذاب فاستعذب العذاب فى جنب اللَّه .

إذن لا عجب أن يذكر اللَّه تعالى بعد الآية السابقة من سورة الجاثية

حال أقوام إذ قالوا : ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية : ٢٤] .

فى حديث من روائع كلام النبى ﷺ يقول : « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينارِ ، وَعَبْدَ الدِّرْهَم ، وَعَبْدُ الْقَطِيفَةِ ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ ، تَعِسَ وانْتَكَسْ ، وَإِذا شِيكَ فَلَا انْتَقَشْ »(١) .

لقد سماه النبى ﷺ (عبدًا) للدينار والدرهم وللقطيفة ؛ لأنَّه انغمس فى محبة هذه التوافه والسفاسف ، فصار غافلًا عن دنياه منشغلًا بها ، فصار كالأسير الذى لا يجد خلاصًا من أسره ، ولم يقل عليه السلام : (جامع الدينار ، ولا مالك الدرهم ، وإنما قال : « عَبْدُ الدِّرْهَم » . لأنه يعلم أن من الناس من يملك الدينار والدرهم ولا يملكانه ، ومنهم من يجمعهما ولا يملكانه ، لكن إذا ملك المال العبد حُقَّ عليه الدعاء ؛ لأنه غافل عن طاعة ربه به ، فقد صار المال غاية قصده ومطلوبه ، فوالى من أجله ، وعادى لأجله ، فهو عبده ، وهو إلهه ومعبوده) .

وهكذا حوّلت الغفلة القلب من عبودية اللَّه تعالى إلى عبودية غيره من جمادات صنعها الإنسان بيده إذا غفل عن مولاه ، وجعل نفسه أسيرًا لهذه الشهوات .

وهذا هو حال كثير من المسلمين الآن ، إن لم يكن حال الغالب الأعم

(١) رواه البخارى (٢٨٨٥-٢٨٨٦) فى الجهاد والسير باب (٧٠) عن أبى هريرة - رضى الله عنه - واللفظ لابن ماجه فى سننه (٤١٢٦) :
وتعس دعاء عليه بالتعاسة .
وانتكس : دعاء عليه بمعاودة المرض .
وشيك : دخلت فى جسده الشوكة .
لا انتقش : أى دخلت منه هذه الشوكة .

فيهم ، اسودَّت قلوبهم بُعَيْدَ غَفَلَتْ وغُلِّقت عن رؤية الحق ، أو الإحساس بالذنب ، فلا تراهم إلا مستبعدين لكل شهوة خائبة ، يعدون أسرهم مفخرة ومأثرة ومنقبة ؛ وما ذلك إلا لأنهم غفلوا أو اتبعوا أهواءهم .

يقول ابن قيم الجوزية فى توصيف هذه الحال التى نحياها :

إن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين ، كما قال بعض السلف فى قوله تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين : ١٤] . هو الذنب بعد الذنب .

وقال الحسن البصرى : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب .

وقال غيره : لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم .

وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية ، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير رانًا ، ثم يغلب حتى يصير طبعًا وقفلًا وختمًا ، فيصير القلب فى غشاوة وغلاف ، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله ، فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد[١] .

إنها إذن الغفلة التى قتلت القلب وطمست بصيرته كما ترى ، وهو مكمن الداء فى هذه الأمة ، إن الغفلة تعمى الأبصار فترى طريق الغى هدى ، وطريق الردى حياة ، فتعمى عن كل ما ينفعها ، ترى سراب الشهوة تحسبه ماء يروى ظمأها حتى إذا جاءته لم تجده شيئًا ، ترى ظلال الطاعة فتحسبها نارًا تنغص عيشها وسلامتها وحالها : ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [يس : ٩]

ثم تنسى الغفلة صاحبها ربه ، وتنسيه نفسه فلا يذكر إلا المهلكات ، وهو

(١) الداء والدواء (ص٥٦-٥٧) لابن قيم الجوزية - ط - المكتب الثقافى .

يظن أنه يحسن صنعًا وقد ضل سعيه ، وفيه صدق قول ربه : ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر : ١٩]، ولن ينال من نسى ربه خيرا ، ولن يظفر بمطلوب ، ولا بهدف ، فقد رأى اللَّهيب بردا وسلاما ، ورأى الراحة قلقا يقض مضجعه .

إن الغفلة تضيق الصدور ، وتنكد الأفراح ، وتوجب التعاسة والمعيشة الضنك ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه : ١٢٤] . وهكذا ترى الغفلة قاتلة تقتل الحس ، والانشراح ، والنور ، والقلب فلا تدع فيه للحياة موضعًا إلا ما يكسو ظاهر حركاته ، وكأنه قبر يسير بصاحبه على الأرض .

(ب) سر الغفلة :

ولكن :

لماذا يتكبر الإنسان وسوف تأكله الديدان ؟

لماذا يطغى وهو يعلم أنه طريح تحت التراب ؟

لماذا ينسى الموت ؟ لماذا يغفل عن مصيره ؟

لماذا يتمادى فى خطئه مع علمه أنه فى لحظة من اللحظات سيفنى ؟

لقد اتفقنا أن الناس جميعا يتفقون على أنهم سيموتون ، وربما اختلفوا فى البعث فبعضهم آمن ، وبعضهم كفر فالكافرون قالوا : ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية : ٢٤] . ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن : ٧] . إن الكافر آمن بالمادة وجحد بما وراءها ، آمن بالحاضر وكفر بالغيب ، فكان كفره سببا لبواره ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإنسان : ٢٧] .

ولذلك فإن الكافر يعمل فى دنياه جاهدًا للانتفاع بكل ملذاتها صغيرة

كانت أم كبيرة ؛ لعلمه القطعى داخل نفسه أنه ميت مأكول للتراب ، فليجتهد فى حياته لتحصيل اللذة .

وإذا كان هذا هو حال الكافر الذى لا يؤمن بالبعث ، فما هو حال المسلم الذى آمن بالموت ، والبعث ، والنشور ، والجنة ، والنار ، المسلم الذى آمن أن هذه الدنيا ستنتهى حتمًا ، وأن دارًا أخرى للجزاء والعقاب فى انتظاره ؟ .

حاله لا يختلف الآن كثيرًا عن حال الكفار ، كأنما المخبر والمظهر واحدٌ لا يختلفان ، فقد غفل هو الآخر عن هذه الحقيقة ونسى أنه فى دار العمل ، وسار فى الدنيا يمشى المطيطاء ، أمن من الموت وكرباته ، والآخرة وروعاتها ، كما أمن حمام الحرم من الصيد ، كأنما خلق عبثًا لفترة محددة ، ولا حساب من وراء الموت : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون : ١١٥] .

ولكن لماذا غفل المسلمون ؟

إن خطر الغفلة الكبير ينبع من مصدر واحد ، وهو تعلق القلب بالدنيا ، فقد وضع المسلمون الدنيا فى مرتبة أعلى من مرتبتها الحقيقة التى وضعها اللَّه عزَّ وجلَّ فيها ، فتعلق القلب بأهوائها ولم يقو على التحرر من أسرها ، بل لم يجاهد نفسه حتى تحول الجهاد إلى تنافس على الدنيا بعد أن كان سعيًا للتحرر من رقها ، والاستعلاء على مغرياتها ، فتناقص سلطان الآخرة على القلوب وتحولت أمانى المسلم وآماله إلى آمال المماليك الدنيوية التى لا تتجاوز : النومة - والأكلة - والشربة . حتى استحكمت هذه الأمانى داخل القلوب فأردتها قتيلة صريعة ، واتقدت نيران العداوة والبغضاء بيننا أبدا ، وراحت كل فئة تعادى الأخرى ، حتى جنى العدو ثمرة ذلك لنفسه بطشا وقهرا وانتصارا ، وظفر الشيطان بما أراد من بنى آدم فقد أضلهم إلا قليلًا .

ها هم عبيد المال ، عبيد الجنس ، عبيد العقارات ، عبيد الأراضى ، عبيد الخمور ، عبيد المسكرات ، عبيد الجاه والمكانة ، عبيد الزعامة ، عبيد الرفاهية والنعيم ، عبيد المخدارت ، ها هُمْ يترنحون فى كل يوم سكارى حيارى ، تراهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا ، قيدتهم الدنيا بحدها وحديدها ، وقادت زمام أمورهم فصاروا مطاياها بعد أن كانت هى مطيتهم ودابتهم .

وراحت الدنيا دار القرار بعد أن كانت جسرا للآخرة ، ونسوا أنها كالبحر لا تصلح دارا ، فمن ذا الذى يبنى على موج البحر دارًا ، تلك الدنيا فلا تتخذوها قرارًا .

وصارت دار المقر بعد أن كانت هى الممر والمعبر إلى الآخرة .

لقد نسى هؤلاء قول اللَّه تعالى : ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ [الحديد : ٢٠] . حتى صار حالنا : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ﴾ [محمد : ١٢] .

وحتى صرنا ممن قال اللَّه فيهم : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ [يونس : ٧] . وانغمسنا فى شهواتها حتى صدق قول اللَّه : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف : ٢٠] . ونسى هؤلاء جميعًا : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ [الكهف : ٧، ٨] .

لقد حقَّر اللَّه تعالى من شأن الدنيا حين قال سبحانه : ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف :٣٣- ٣٥] .

نعم : الدنيا للفاسقين . . . والآخرة للمتقين :

ولذا جاء فى حديث قتادة عن النبى ﷺ أنه قال : « إن اللّه إذا أحب عبدا حماه عن الدنيا كما يظل أحدكم يحمى سقيمه الماء »[١] .

وفى حديث عبد اللّه بن عمر - رضى اللّه عنه - أنه ﷺ قال : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر »[٢] وصور ﷺ حاله والدنيا فقال : « مالى وللدنيا ؛ إنما مثلى ومثل الدنيا كراكب قَالَ فى ظل شجرة ثم راح عنها وتركها »[٣] أى قام فى ظل شجرة فى الطريق ثم تركها .

وهو الذى حبب إليه من دنيانا النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عينه فى الصلاة وهو الذى أراد أن يصور نعيم الدنيا الزائل بالنسبة للأخرة فقال : « ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يمشى أحدكم إلى اليم فأدخل إصبعه فيه ، فما خرج منه فهو الدُنيا »[٤] .

وفى حديث زيد بن ثابت - رضى اللّه عنه - عن النبى ﷺ قال : « من كانت الدنيا همه فرق اللّه عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة نيته جمع اللّه عليه أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة »[٥] .

وفى حديث ابن عمر عنه ﷺ أنه قال : « كن فى الدنيا كأنَّكَ غريب أو عابر سبيل » .

---

(١) صحيح : صححه الألبانى (٢٠٣٦) فى سنن الترمذى - كتاب الطب .

(٢) رواه مسلم (٢٩٦٠) فى الزهد .

(٣) صحيح : صححه الألبانى (٢٣٧٧) فى الزهد عند الترمذى - عن عبد الله بن مسعود .

(٤) صحيح : صححه الألبانى (٥٥٤٧) فى صحيح الجامع .

(٥) صحيح : صححه الألبانى (٢٤٦٥) فى سنن الترمذى من كتاب صفة القيامة .

وكان ابن عمر - رضى اللَّه عنهم - يقول : (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك)[١] .

لقد فهم النبى ﷺ وأصحابه أن الدنيا ما هى إلا مطية تسير بهم نحو الآخرة ، ونحو الموت وإن لم يسيروا هم :

وما هذه الأيام إلا مراحل   يحث بها داع إلى الموت قاصد
وأَعْجَبُ شىء لو تأملت أنها   منازل تطوى والمُسافر قاعِدُ

يقول الفضيل بن عياض : المؤمن فى الدنيا مهموم حزين همه مرمة جهازه ، ومن كان فى الدنيا كذلك ، فلا هم له إلا التزود بما ينفعه عند العود إلى وطنه ، فلا ينافس أهل البلد الذى هو غريب بينهم فى عزهم ، ولا يجزع من الذل عندهم .

وقال الحسن البصرى : المؤمن فى الدنيا كالغريب لا يجزع من ذلها ، ولا ينافس فى عزها ، له شأن وللناس شأن . لما خلق اللَّه آدم عليه السلام أسكن هو وزوجته الجنة ثم أهبط منها ، ووعدا بالرجوع إليها وصالحو ذريتهما ، فالمؤمن أبدا يحن إلى وطنه الأول .

كم منزل للمرء يألفه الفتى   وحنينه أبدا لأول منزل

وقال آخر :

فحى على جنات عدن فإنها   منازلك الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبى العدو فهل ترى   نعود إلى أوطاننا ونسلم
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى   وشطت به أوطانه فهو مغرم[٢]

---

(١) رواه البخارى (٦٤١٦) فى الرقاق .

(٢) شطت : ابتعدت .

وأى اغترار فوق غربتنا التى لها أضحت الأعداء فينا تحكم[(١)]

لقد جاء أعرابى إلى البصرة يسأل : من سيد أهل هذه القرية ؟

قالوا : الحسن البصرى .

قال : بما سادهم ؟

قالوا : احتاج الناس إلى علمه واستغنى هو عن دنياهم[(٢)] .

فيا اللّه . . . هذا هو ما فعله الحسن بالضبط استغنى عن الدنيا ، فلما استغنى عنها احتاج أهل الدنيا إلى دينه ؛ لأنه رأى الدنيا جيفة يتصارع عليها كلاب ضالة قد أعماهم حبها ، حين طمس على قلوبهم ، فهم يتنازعونها ، أو رأى الدنيا فتاتا من فتات الموائد لا يقبل الأمراء إياه ، بل تتنازعه النفوس الدنيئة التى ترى الطين وكدره وسواده فى وجوههم ، وتشتم رائحته من بعيد :

وما هى إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب همهن اجتذابها
فإن تجتنبها كنت سلما لأهلها وإن تجتذبها نازعتك كلابها

إن أهل الدنيا الذين يتكالبون عليها وقعوا تحت وطأة الحساب الثقيل يوم الحساب .

إن من يتصارعون فى طلب الدنيا ونعيمها نسوا أن الدنيا غادرة قليلة الوفاء لأهلها .

إن من يتنافسون فى الدنيا نسوا أن متاع الدنيا قليل :

قد نادت الدنيا على نفسها لو كان فى العالم من يسمع
كم واثق بالعمر أفنيته وجامع بددت ما يجمع

---

(١) ابن رجب الحنبلى (٥٤٣) فى جامع العلوم والحكم .

(٢) سبق تخريجه .

لقد صاح مالك بن دينار فيمن حوله وقد رأى حب الدنيا قد تملك قلوب من حوله فقال : اتقوا السحارة ، اتقوا السحارة ؛ فإنها تسحر قلوب العلماء[١] ، ثم قال لهم : (إن اللّه قد جعل الدنيا دار مفر ، والآخرة دار مقر فخذوا لمقركم من مفركم ، وأخرجوا الدنيا من قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم ففى الدنيا حييتم ولغيرها خُلقتم ، إنما مثل الدنيا كالسُّم أكله من لا يعرفه واجتنبه من عرفه ومثل الدنيا مثل الحية مسها لين وفى جوفها السُّم القاتل يحذرها ذوو العقول ويهوى إليها الصبيان بأيديهم[٢] .

وهذا هو عمر - رضى اللّه عنه - يعطى لنا المثل فى الدنيا ، فبينما هو يمشى مع أصحابه مر على مزبلة فاحتبس عندها ، فكأنه شق على أصحابه وتأذوا بها . فقال لهم : « هذه دنياكم التى تحرصون عليها »[٣] .

هذه هى الدنيا كما رآها سلف هذه الأمة : (سُمٌّ - حيَّة - مزبلة - قذارة - جيفة - زينة مؤقتة سرعان ما تزول - ظل شجرة سرعان ما يروح) أما نحن فنراها غير ذلك ؛ نراها (جنَّة ، نراها دواء ، نراها قصرا لا ينهدم ، وقرة عين لا تزول ، وظل دائم من أجل ذلك حرصنا عليها فأعمت القلوب والأبصار ، ومن ثم صرنا فى غفلة يصعب علاجها حتى صرنا مثارا للسخرية من السلف قبل أن يروا حالنا أو يعرفوا أشخاصنا ، وتبلغهم أفعالنا ، حين قال سلمان الفارسى - رضى اللّه عنه - فى ثلاثيته الرائعة :

ثلاث أعجبتنى حتى أضحكتنى : «مؤمل دنيا والموت يطلبه ، وغافل

---

(١) صفة الصفوة (٢/ ٦٣٩) لابن الجوزي .

(٢) انظر السابق (٢/ ٦٤٠) .

(٣) الزهد للإمام أحمد ص ١٤٧ ط الريان .

ليس بمغفول عنه ، وضاحك بملء فيه ولا يدرى أساخط عليه رب العالمين أم راض » .

فمن منا ليس هذا الرجل ؟!

لقد أحب الناس الدنيا ورضوا بها واطمأنوا إليها وهم يعلمون أنها نار تأكل دين الرجل كما تأكل الحطب النار لقد أحبها الناس واستمكنت منهم ومن قلوبهم ونسوا أن الموت يشوه كل جمال للدنيا ، ويقبض كل ما فيها من مباهج ومسرات .

ثقل على الناس مفارقة الدنيا حين تعلقت بها قلوبهم وأنسوا بها واطمأنوا إليها .

امتنعت قلوبهم من التفكير فى الموت حتى دهمهم فجأة فإذا هم صرعى فى عداد قتلاها كأنهم لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ووقتها تتعالى الحسرات وينقطع الأمل فى تدارك ما فات وعندها يتمنى الإنسان لو منح مهلة أخرى من الزمن أو أخر إلى أجل قريب : ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون : ١١] .

هذه هى الدنيا ، وهذه هى حال أهلها وأربابها ، تمكنت واستمكنت ، وحلت فأوحلت ، فليكن لذى لُب بها اعتبارا ، ولينادى كما نادى على - رضى اللَّه عنه - : يا دنيا غُرِّى غيرى !!

ولو فكر القوم قليلا فيمن مات وذهب إلى القبر بعد ليال كيف يكون حاله :

تمزقت الأكفان . . . . . نتنت الرائحة . . . . سرى الدود على الخدود

صار من بعد القصور بين الجماجم ، والعظام والأجداث والبلى .

صار بعد الأنس بين جيران غرباء حيث الوحدة والوحشة وأول منازل الآخرة فاعتبروا يا أولى الأبصار .

(٣) طول الأمل . . والغفلة عن الموت

ربما تستطيع أن تطلب مهلة لسداد الدين إن فات موعده فتعطى .

ربما يمد فى قبول طلب لكِ حتى وقت آخر .

ربما تتدارك ما فات من مال ، أو تقضى حاجة مر وقتها .

لكن أن تفوت الموت ، وتهرب منه ، ويتأخر أجلك فهذا هو المحال المستحيل .

وقد يموت بالمرض فتقول : مات بسبب المرض .

أما أن ترى الشاب يافعا ، سليم البنيان ، والشيخ صحيحا لا تعتريه الأمراض ثم يموت بلا أسباب فهذه هى الرسالة التى تبعثها السماء إلى أهل الأرض ليفيقوا من غفوتهم وغفلتهم ، فالنهاية قادمة لا محالة ، والأهم أننا لا نعرف متى وأين وكيف ، فوجب الانتباه والاستعداد ، والكف عن الانشغال بالدنيا والصراع على المناصب والأموال ، ومفارقة التشاحن والخصام .

هما حقيقتان لا ثالث لهما :

- الموت قادم .
- الموت لا فرار منه .

وكلما أخذ الناس العبرة والعظة وقف أمامهم جدار الغفلة معه (طول الهوى) ذلك الجرح النازف الذى يعطل تدفق الدم فى نفوس أرادت العبرة والعظة .

إن كثيرا من الناس يغترون بصحتهم وشبابهم فيستبعدون وقوع الموت مع الصحة والفراغ ، ويظل كل واحد منهم يمنى بأن بأن الأيام ما زالت بين يديه حتى يكبر ثم يتوب ، وفى غمرة هذه الغفلة والسكرة تعمى البصيرة عن إدارك

أبسط قواعد هذه الحياة على الإطلاق وأكثرها صدقا : لا موعد ولا سن ، ولا وقت معلوم للموت فكم من مستقبل يوما لا يستكمله ، وكم من مؤمل غدا لا يدركه ، وصدق من قال :

تزود من التقى فإنك لا تدرى إذا جَنَّ ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من سليم مات من غير علة وكم من سقيم عاش حينا من الدهر
وكم من فتى يمسى ويصبح آمنا وقد نسجت أكفانه وهو لا يدرى
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم وقد أدخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من عروس زينوها لزوجها وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر

فالذين عميت بصائرهم وغفلت قلوبهم ، واشتغلوا بحب الدنيا غير مبالين بسوء أعمالهم ولا مكترثين بلقاء ربهم : ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [هود :١٦] . إن من طال أمله فى الحياة يجمع لها غير مبال من حلال جمع أو من حرام . . . من طال أمله فى الدنيا يفجر ويظلم ، ويغدر ناسيا أن يوما قريبا سوف يلقى فيه عاقبة عمله ، وصدق من قال : (طول الأمل فى الحياة غفلة ، ونسيان الموت جفوة ، واطمئنان الإنسان للأيام ضياع) .

وقل من الناس من يذكر الموت ويخافه ، فالكل قد غلبته الشهوة وتعلق بأحبال الأمل البالية .

فانصرف عن الآخرة إلى المغريات وهذا هو النموذج الأعم الذى تحدث عنه القرآن فقال تعالى : ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١﴾ [الأنبياء :١] . ونسى هؤلاء أن كل نفس يخرج من أفواههم يقربهم من لحظة النهاية ، وأن ليس ثمة ضامن يضمن لهم البقاء فى الحياة ، ونسى هؤلاء أن الوحيد الذى ضمن له البقاء فى الدنيا ميت هو الآخر ثم مجازى بعمله وهو

الشيطان ، وإنما أبقاه اللَّه تعالى فتنة لعباده ، فانظروا إلى من بقى ؟ ولماذا بقى ؟ .

يقول شقيق البلخى : الناس يقولون ثلاثة أقوال وقد خالفوها من أعمالهم :

يقولون : نحن عبيد اللَّه . وهو يعملون عمل الأحرار ، وهذا خلاف قولهم .

ويقولون : إن اللَّه كفيل بأرزاقنا . ولا تطمئن قلوبهم إلا بالدنيا وجمع حطامها ، وهذا أيضًا مخالف لقولهم .

يقولون : لابد لنا من الموت . وهم يعملون أعمال من لا يموت ، وهذا أيضًا خلاف قولهم .

هذه هى مواقع الناس فى الدنيا وأقوالهم وصدق من قال مذكرا :

وَمَا أَدْرِى وَإِنْ أَمَّلْتُ عمرًا   لعلى حين أصبح لستُ أُمْسِى
أَلَمْ تَرَ كُلَّ صَبَاحِ يَوْمٍ   وعمرك فيه أقصر مِنْ أَمْسِ

لو وقف الآملون من أهل الهوى على المقابر لرأوا عجبا ، ولنطق لسان حالهم يقول :

مَا لِلمَقَابِرِ لَا تُجِيبْ   إِذَا دَعَاهُنَّ الْكَئِيبْ
حفرٌ مُسَقَّفَةٌ عَلَيْهِ   هُنَّ الْجَنَادِلُ والكَثِيبْ
فِيهِنَّ وِلْدَانٌ وَأَطْـ   فَالٌ وشُبَّانٌ وشِيبْ
كَمْ مِنْ حَبِيبٍ لَمْ تَكُنْ   نَفْسِى بِرُفْقَتِهِ تَطِيبْ
غَادَرْتُهُ فِى بَعْضِهِنَّ مُجَـ   ـنْدَلًا وَهْوَ الْحَبِيبْ
وَسَلَوْتُ عَنْهُ وَإِنَّمَا   عَهْدِى بِرُؤْيَتِهِ قَرِيبْ

ولكن لماذا تذكر الموت الدائم وعدم الغفلة عنه ؟

إن تصور الموت وتذكره ليس تصورًا حالمًا ليوم بعيد ، ولكنه نوعٌ من التربية يقمع طبائع الشر بالرهبة ، ويغرى حوافز الخير بالرغبة ، فإن المؤمن حين يلمح ببصيرته ما يكون عند السكرات ونزع الروح ، يغريه الطموح الشريف إلى الظفر برضوان اللَّه ، ويزعجه القلق البالغ من العذاب الواقع بالأموات عند قبض الأرواح ، فيكون بين هذين الشعورين كريما مستقيما ، والمهم هو الاستيقان من أن الموت حق مثل الاستيقان بأننا موجودون فى هذه الدار ، وأن الدنيا ستنتهى حتما ، وستنقضى هى الأخرى يوما ما .

فهل كان خلقنا تسلية وعبثًا ، ومقامنا فيها فترة انتهت سدى ؟ كلا فاللَّه تعالى يقول : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون :١١٥] . وهو سبحانه القائل : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [المُلْك :٢] . ولقد قدَّم سبحانه الموت على الحياة ؛ لأن أقوى الناس داعيًا إلى العمل من نصب موته بين عينيه[١] .

وبذلك فإنه لا مستقبل عند اللَّه لمن لم يستفد من عمره علمًا يرقى بعقله ، وأدبًا يسمو بخُلُقه ، وتقوى تدعم علاقته بربه ، وتكون ذخرًا له عند لقائه .

إن اللَّه تعالى لا يرقى إلى كماله الأسنى العقول ، ومن كماله سبحانه أنه أوجد البشر على هذه الأرض ، وهى كوكبٌ ضيق ، ثم أعطاهم فرصة خطيرة - لو أحسنوا استغلالها - وهى الحياة ، ولن يمنح اللَّه تعالى الخلود فى جواره الكريم إلا لمن ينتهزون هذه الفرصة فترشحهم أعمالهم وأحوالهم للصعود إلى الرفيق الأعلى .

إن اللَّهَ تعالى طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا .

---

(١) القرطبى (١٨/١٩٧) فى التفسير .

إن الذين التصقوا بالتراب وعاشوا له ، لن يرتفعوا عنه : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف : ٤٠] .

فمن الخير للإنسان أن يعلم علم اليقين أن عمره المحدود فى هذه الدنيا إن لم يكن وسيلة للتكمل والترقى فلن يشرق غده ، ولن يخرج منها بطائل ، فالجنة التى وعد اللَّه المتقين لا تتسع لخسيس ولا لمهين ، وإذا لم يكن الإنسان على قدر من التقوى والإيمان فلن يجد لها منزلة .

إن للجنة مستوى خاصا من الكمال ومن فقده لم يبق لها أهلا ، وفاقد الكمال أول فقدانه : نسيان الموت والغفلة عنه ، إذ من بقيت فى نفسه أثارة من شر وأدركه الموت ولم يتطهر منها حبس على شواطئ الآخرة ، ولم يدخل جنة ربه على تلك الحال .

ومن لم يستو وينضج فى الدنيا ، انتظرته أهوال الموت وشدائده لتكمل ما نقصه ، وتعوض ما فاته : ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ۝٣٨ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ۝٣٩﴾ [المعارج : ٣٨، ٣٩] . لقد خلق اللَّه تعالى الإنسان من أصول فيها كدر وكثافة وهوان ، خلقه من صلصال من حمأ مسنون ، من نطفة أمشاج ، وأمامه فى الدنيا فسحة من الأجل والعمر ، ينبغى أن يستغلها فى ترشيح نفسه للملأ الأعلى ، فيقهر أهواءه ، ويقهر شيطانه ، ويقهر دنياه ، ويمسح أكداره ، ويرقق من طينته ، ويسمو بطبيعته ، ويتعهد روحه بالصقل والتهذيب حتى يطيب ويطهر ، فإذا جاءته رسل ربه لتنقله إلى الدار الآخرة ، صدق فيه قول اللَّه تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٣٢﴾ [النحل : ٣٢] . وعلى النقيض يعيش فى قونتن الطين وسواده وكدره ، وهؤلاء مهما زعموا وأملوا ليسوا أصحاب الجنة ، وإذا كنت منهم هل تعلم لماذا لن تكون من أصحاب الجنة ؟

لأنك غافل قهرتك الدنيا .

لأنك اقترفت الشرور والآثام وسلكت الطرق الغير مشروعة طرق الحرام، لأنك تعللت بعلل مكذوبة، وسلكت أساليب ملتوية لتزين لنفسك أنك من الصالحين .

وأنت فى الحقيقة مفسد . . . لص . . . كذاب . . . . مجرم ، واللَّه لا يصلح عمل المفسدين .

بل إنك وأربابك ممن ادعوا الصلاح ستتلاومون فى مشهد أخروى يحاول كلٌ منكم إلقاء التبعة على الآخر ليتنصل من الذنب ويفر من العقاب عندها يقرع أذنك ورفاقك صوت الحق وهو يقول: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ .[ق: ٢٨، ٢٩].

فويل لأدعياء الصلاح وهم أرباب الفساد ، وويل لمحتالى الإيمان وهم ذئاب فى الخلوات، وويل لأرباب الدنيا من عذاب الآخرة، وويل لأهل الفساد وإن غطاهم الصلاّح، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس: ٨١، ٨٢] . لن يدخل الجنة محتال على اللَّه، ولن يدخل النار موحدٌ صادق،ولو خولف هذا فمعناه انقلاب ميزان العدل الإلهى وحاشاه.

إن بعض المنافقين من الغافلين يعيشون بيننا ، ولا تتعجب فالنفاق ليس ظاهرة مقصورة على وقت النبى ﷺ ، بل هى نموذج متواجد فى كل عصر ، ورحم اللَّه الحسن البصرى إذ قال: لو أن للمنافقين أذنابًا تنبت على الأرض لما استطعنا أن نسير .

كثير منهم يعيش لا يرهب ذنبه، ولا يرجو حسنة حتى نشر هذه الفلسفة الحقيرة بيننا، حتى غوى من حوله، وأُهين الدين، ولُوث المجتمع، ولن

يتساوى ذاكر الموت الذى يعمل صالحًا، مع الغافل عنه الذى غرق فى بحر النفاق، وألهته الدنيا بشهواتها: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]. ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٨، ٢٩].

إن الموت عقيدة تعلو فوق شبهات الرد، فلنتهيأ لها بالزاد الطيب إذن، بدلًا من نسيان وقوعه والغفلة عنه.

وأسوأ من سبق ذلك الذى يذكر الموت، لكنه ترك التفكير فيه والعمل له، وذلك الذى قيل فيه:

أذكر الموت ولا أرهبه ... إن قلبى لغليظ كالحجر
أطلب الدنيا كأنى خالدٌ ... وورائى الموت يقفوا بالأثر
وكفى بالموت فاعلم واعظًا ... لمن الموت عليه قد قدر
والمنايا حوله ترصده ... ليس ينجى المرء منهن المفر

قد آن للنائم إذن أن يستيقظ من نومه.

وآن للغافل أن ينتبه من غفلته قبل هجوم الموت بكأسه ومرارته.

وتاللَّه لو كان الموت عدمًا محضًا أو فناءً خالصًا لارتاح من فى الأرض كلهم أجمعون، لكنه انتقال من دار إلى دار، وبعد الموت حساب، وسؤال، وجنة أو نار.

وَلَوْ أَنَّا إِذَا مِتْنَا تُرِكْنَا ... لكانَ الْمَوْتُ راحَةَ كُلِّ حَيِّ
وَلَكِنَّا إِذَا مِتْنَا بُعِثْنَا ... ونُسْأَلُ بَعْدَهُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ

عند الموت تطوى الصحائف لتسلم إلى باريها.

وعند الموت ينتقل من دار العمل إلى دار الحساب.

عند الموت تنقطع مهلة التوبة، فإن اللَّه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر - أى تصل روحه إلى الحلقوم - عند الموت تترك الأموال، والثروات، والعقارات، والأرضين.

انظر لِمَنْ مَلَكَ الدُّنيا بأجمعِها هل خرج منها بغير القطن والكفن

قالوا عن تذكر الموت وعدم الغفلة عنه:

قال يزيد الرقاشى:

ويحك يا يزيد من ذا يصلى عنك بعد الموت؟

من ذا يصوم عنك بعد الموت؟

من ذا يترضى عنك بعد الموت؟

أيها الناس ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقى حياتكم؟

من الموت طالبه، والقبر بيته، والتراب فراشه، والدود أنيسه، ومع هذا ينتظر الفزع الأكبر، كيف يكون حاله؟ ثم يبكى رحمه اللَّه.

وقال التيمى: شيئان قطعَا عنى لذة الدنيا: ذكر الموت، وذكر الموقف بين يدى اللَّه تعالى.

وقال الدقاق: من أكثر ذكر الموت أُكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة، ومن نسى الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضا بالكفاف، والتكاسل فى العبادة.

وقال الحسن البصرى: إن هذا الموت قد أفسد على أهل النعيم نعيمهم، فالتمسوا عَيْشا لا موت فيه.

وقال سعيد بن جبير : الغرة باللَّه أن يتمادى الرجل بالمعصية ويتمنى على اللَّه المغفرة .

قلت: وذلك قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ٢٣][١].

وقال يزيد بن نعيم: من لم يردعه الموتُ والقرآنُ ثم تنطحت عنده الجبال لم يرتدع.

وخطب عمر بن عبد العزيز رضى اللَّه عنه وأرضاه فحمد اللَّه وأثنى عليه وقال: أيها الناس! إنكم لم تُخلقوا عبثًا ولن تُتْركوا سدى، وإن لكم معادًا يجمعكم اللَّه فيه للحكم والفصل فيما بينكم، فخاب وشقى غدًا عبد أخرجه اللَّه من رحمته التى وسعت كل شىء، وجنته التى عرضها السماوات والأرض، وإنما يكون الأمان غدًا لمن خاف واتقى، وباع قليلًا بكثير، وفانيًا بباق، وشقوة بسعادة، ألا ترون أنكم فى الهالكين، وسيخلف بعدكم الباقون؟ ألا ترون أنكم فى كل يوم تُشيعون غاديًا ورائحًا إلى اللَّه عز وجل قد قضى نحبه، وانقطع أمله؟ فتضعونه فى بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد، قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب، وواجه الحساب؟ وايمُ اللَّه إنى لأقول مقالتى هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسى، ولكنها سنن من اللَّه عادلة، آمُر فيها بطاعته، وأنهى فيها عن معصيته، وأستغفر اللَّه.

ووضع - رحمة اللَّهِ عليه - كفه على وجهه وجعل يبكى حتى بلت دموعه لحيته، وما عاد إلى مجلسه حتى مات!.

كان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة، ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة.

وقال إبراهيم التميمى: شيئان قطعا عنى لذة الدنيا: ذكر الموت،

(١) القرطبى (١/٨-١٠) فى التذكرة.

والوقوف بين يدى اللَّه عز وجل.

وقال كعب: من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها.

وقالت صفية رضى اللَّه عنها: إن امرأة اشتكت إلى عائشة رضى اللَّه عنها قساوة قلبها فقالت: أكثرى ذكر الموت يرق قلبك.

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء: عِظْنى ، فقال: لستَ أول خليفة تموت. . قال: زدنى . قال: ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت ، وقد جاءت نوبتك. فبكى عمر لذلك.

وكان الربيع بن خثيم قد حفر قبرًا فى داره، فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت. وكان يقول: لو فارق ذكر الموت قلبى ساعة واحدة لفسد.

نظر عمرو بن العاص إلى المقبرة فنزل وصلّى ركعتين، فقيل له: هذا شىء لم تكن تصنعه ؟ فقال : ذكرتُ أهل القبور وما حِيل بينهم وبينه، فأحببت أن أتقرب إلى اللَّه بهما.

وقال أبو ذر: ألا أخبركم بيوم فقرى؟ يوم أوضع فى قبرى .

وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور ، فقيل له فى ذلك؛ فقال : أجلس إلى قوم يذكرونى معادى وإذا قمت لم يغتابونى .

وكان جعفر بن محمد يأتى القبور ليلًا ويقول : يا أهل القبور مالى إذا دعوتكم لا تجيبونى ! . . ، ثم يقول : حِيل واللَّهِ بينهم وبين جوابى ، وكأنى بى أكون مثلهم ، ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر.

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه: يا فلان لقد أرِقْت الليلة أتفَكر فى القبر وساكنه، إنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة أيام فى قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك به، ولرأيت بيتًا تجول فيه الهوام ، ويجرى فيه

الصديد، وتخترقه الديدان مع تغير الريح، وبلى الأكفان بعد حسن هيئة وطيب الريح ونقاء الثوب، . . . قال: ثم شهق شهقة خَرّ مغشيًّا عليه.

وكان يزيد الرقاشى يقول: أيها المقبور فى حفرته، والمتخلى فى القبر بوحدته، المستأنس فى بطن الأرض بأعماله، ليت شعرى بأى أعمالك استبشرت، وبأى إخوانك اغتبطت . ثم يبكى حتى يبل عمامته ، ثم يقول : استبشَرَ واللّهِ بأعماله الصالحة، واغتبط واللّه بإخوانه المتعاونين على طاعة اللّه تعالى . .

وقال حاتم الأصم: مَن مَرّ بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ، ولم يَدْعُ لهم فقد خان نفسه وخانهم .

وكان بكر العابد يقول: يا أماه ليتكِ كنتِ بى عقيمًا إن لابنك فى القبر حبسًا طويلًا ، ومن بعد ذلك منه رحيلا .

وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول: ما أحسن ظواهرك، إنما الدواهى فى بواطنك.

وكان عطاء السملى إذا جَنّ عليه الليل خرج إلى المقبرة ثم يقول: يا أهل القبور متّم فواموتاه، وعاينتم أعمالكم فواعملاه. ثم يقول: غدًا عطاء فى القبور، غدًا عطاء فى القبور . . فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح.

وكان الربيع بن خثيم قد حفر فى داره قبرًا ، فكان إذا وجد فى قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ، ومكث ما شاء اللّه ثم يقول : ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون : ٩٩، ١٠٠] يرددها . ثم يَرُدُّ على نفسه : يا ربيع قد رجعتَ فاعمل !

وقال ميمون بن مهران: خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة، فلما نظر إلى القبور بكى، ثم أقبل علىّ فقال: يا ميمون، هذه قبور آبائى بنى أمية،

كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذاتهم وعيشهم، أما تراهم صرعى قد خلت بهم المَثُلَات[١] واستحكم فيهم الْبِلَى، وأصابت الهوام مقيلًا[٢] فى أبدانهم؟ . . ثم بكى وقال: واللَّه ما أعلم أحدًا نُعِّم ممن صار إلى هذه القبور وقد أَمِنَ مِنْ عذاب اللَّه.

وقال ثابت البنانى: دخلت المقابر فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول: يا ثابت لا يَغُرَّنك صموت أهلها، فكم من نفس مغمومة فيها.

وروى عن مطرف بن أبى بكر الهذلى قال: كانت عجوز فى عبد القيس متعبدة، فكان إذا جاء الليل تَحَزَّمت ثم قامت إلى المحراب، وإذا جاء النار خرجت إلى القبور، فبلغنى أنها عوتبت فى كثرة إتيانها المقابر فقالت: إن القلب القاسى إذا جفا لم يُلَيِّنه إلا رسوم البلى، وإنى لآتى القبور فكأنى أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها، وكأنى أنظر إلى تلك الوجوه المتعفرة، وإلى تلك الأجسام المتغيرة، فيالها من نظرة لو أشربها العبادُ قلوبَهم!!، ما أنكل مراراتها للأنفس، وأشد تلفها للأبدان.

ودخل فقيه على عمر بن عبد العزيز فتعجَّبَ من تَغَيُّر صورته لكثرة الجهد والعبادة، فقال له: يا فلان! لو رأيتنى بعد ثلاث وقد أُدْخلت قبرى، وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين، وتقلصت الشفتان عن الأسنان، وخرج الصديد من الفم، وانفتح الفم، ونتأ البطن فَعَلا الصدر، وخرج الصُّلب من الدُّبُر، وخرج الدود والصديد من المناخر؛ لرأيتَ أعجب مما تراه الآن !!

الأسباب الباعثة على ذكر الموت:

١- زيارة القبور.

---

(١) المثلات: العقوبات.

(٢) مقيلًا : مستراحًا ومقامًا.

٢- زيارة مغاسل الأموات، أو رؤية الموتى حين يغسلون.

٣- مشاهدة المحتضرين وهم يعانون سكرات الموت وتلقينهم الشهادة.

٤- تشييع الجنائز والصلاة عليها وحضور دفنها .

٥- تلاوة القرآن ولا سيما الآيات التى تذكر الموت وسكرته ، والآخرة ومشاهدها .

٦- النظر إلى الشيب والمرض فهما من رسل ملك الموت .

٧- الاعتبار بمصارع السابقين من الأهل والإخوان ، ومن تشهد جنازاتهم .

٨- النظر إلى تواريخ السابقين من الأمم، فلو اطلعت على حياة أكثر الناس حياة فى هذا الوجود، وأكثرهم قوة، وأغناهم مالًا ، لوجدت أنه لم يفر من الموت .

٩- الاعتبار بقتلى وصرعى حوادث الطرق خاصة أنهم من الشباب فى معظم الأحوال .

١٠- الاعتبار بالظواهر الكونية التى تقرب العباد من الموت كالزلازل، والبراكين، والحرائق، والفيضانات .

١١- حضور مجالس الوعظ والتذكير.

فوائد ذكر الموت :

١- أنه يحث على الاستعداد للموت قبل نزوله .

٢- يقصر الأمل فى طول البقاء، وكما ذكرنا طول الأمل من أعظم أسباب الغفلة .

٣- يزهد فى الدنيا ويرضى بالقليل منها، والابتعاد عن مزاحمة الأراذل فيها.

٤- يرغب فى الآخرة ويدعو إلى ملازمة الطاعات.

٥- يهون على العبد مصائب الدنيا.

٦- يمنع من الأشر والبطر واللَّهث وراء لذات الدنيا.

٧- يحث على التوبة واستدراك ما فات.

٨- يرقق القلوب، ويدمع الأعين، ويطرد الهوى، ويلزمنا التدين

٩- يدعو إلى التواضع وترك الكبر والظلم.

١٠- يدعو إلى المسامحة والرفق واللين، وقبول الأعذار.

* * *

شدائد الموت وأهواله!!

١) سكرات الموت:

فللموت ألم لا يعلمه إلا الذى يعالجه ويذوقه ، فالميت تراه وقد انقطع صوته، وضعفت قوته عن الصياح لشدة الألم والكرب على القلب، فإن الموت قد هدَّ كل جزء من أجزاء البدن، وأضعف كل جوارحه، فلم يترك له قوة للاستغاثة، أما العقل فقد غَشِيته وسوسة، وأما اللسان فقد أبكمه، وأما الأطراف فقد أضعفها، ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح، ولكنه لا يقدر على ذلك ، فإن بقيتْ له قوة سُمع له عند نزع الروح وجذبها خوارٌ وغرغرة من حلْقه وصدره ، وقد تغير لونه ، وأزبد ، ولكل عضو من أعضائه سكرة بعد سكرة ، وكربة بعد كربة ، حتى تبلغ روحه إلى الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ، وتحيط به الحسرة والندامة إن كان من الخاسرين ، أو الفرح والسرور إن كان من المتقين.

قالت عائشة - رضى اللَّه عنها - : كان بين يدى النبى ﷺ رَكْوة أو علبة فيها ماء ، فجعل يدخل يده فى الماء فيمسح به وجهه ويقول: «لا إلهَ إلَّا اللَّهُ . . إنَّ للموتِ سَكَراتٍ»[1]. وفى لفظ أنه ﷺ كان يقول عند موته: «اللَّهم أعنِّى على سكرات الموت» والسكرات هى الشدائد والكربات.

وتشديد اللَّه تعالى على أنبيائه عند الموت رفعة فى أحوالهم، وكمال لدرجاتهم، ولا يُفهم من هذا أن اللَّه تعالى شدد عليهم أكثر مما شدد على العصاة والمخلطين، فإن تشديده على هؤلاء عقوبة لهم ومؤاخذة على إجرامهم، فلا نسبة بينه وبين هذا.

وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾

---

(١) رواه البخارى (٦٥١٠) فى الرقاق.

[ق: ١٩] . وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنعام: ٩٣] . وقال: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ۝٢٦﴾ [القيامة: ٢٦].

والسكرات هى الآلام التى يجدها الميت عند خروج روحه ، لو وضعت من آلامها شعرة على أهل الأرض لماتوا ، وضربة منها كأشد من ألف ضربة بالسيف ، ولو علمناها لخرجنا نعدو فى الصحارى بعيدًا عن الفُرش لئلا تدركنا هذه السكرة.

رُئِى أحد الصالحين بعد موته فقيل له: كيف وجدت الموت؟. قال: أواه.. أواه، وجدته واللَّه شديدًا، أشد من طبخ القدور ، والنشر بالمناشير أقبل ملك الموت نحوى فاستل الروح من كل عضو منى ، فلو أنى طبخت سبعين مرة فى القدور لكان أهون علىَّ .

وقال عمرو بن العاص - رضى اللَّه عنه - حين كان على فراش الموت يحتضر واشتد به السكرات: كأن على كتفىّ جبل، وكأن فى جوفى شوك، وكأن روحى تخرج من سَمِّ إبرةٍ ، وكأن السماء أُطبقت على الأرض وأنا بينهما .

وقال إبراهيم عليه السلام عن الموت بعدما قبض اللَّه تعالى روحه : كسفودٍ محمى جعل فى صوف رطب ثم جذب . أى كسيخ من أسياخ الحديد وضع فى صوف رطب.

وقال موسى عليه السلام: وجدت نفسى كشاة تسلخ وهى حية[(١)] .

ولقد قال اللَّه تعالى عن العصاة والمنافقين والكفار حال احتضارهم : ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ۝٢٧﴾ [محمد: ٢٧] يضربونهم بسياط من نار والعياذ باللَّه.

---

(١) القرطبى (١/١٨-١٩) فى التذكرة.

وقال سبحانه عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [النحل: ٢٨].

وقال فيهم: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝٥١﴾ [الأنفال: ٥٠، ٥١]

وأكثر هذا وذاك تمنيهم أن لو عادوا إلى الدنيا يصيحون: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩] يتحسرون: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] يتمنون أن لو كانوا من الطائعين ويشتهون التوبة ولكن: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

*** كلام قيم للغزالى - رحمه اللَّه - حول الموت**

ومن كلام الغزالى رحمه اللَّه: اعلم أن الموت هائل، وخطره عظيم، ومَن لم يذكره ليس يذكره بقلب فارغ، بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا، فليرجع ذكر الموت فى قلبه، فالطريف فيه أن يُفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذى هو بين يديه، كالذى يريد أن يسافر إلى مفازة [١] مخطرة أو يركب البحر، فإنه لا يتفكر إلا فيه، فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه، وعند ذلك يَقِلُّ فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه، وأنجع[٢] طريق فيه أن يُكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله، فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم فى مناصبهم وأحوالهم، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم، وكيف تبددت أجزاؤهم فى قبورهم، وكيف أرملوا نساءهم، وأيتموا أولادهم، وضيعوا أموالهم، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم، وانقطعت آثارهم فمهما تَذَكَّر رجلٌ رجلًا، وفَصَّل فى قلبه حاله

(١) مفازة: صحراء مهلكة.

(٢) أنجع: أنجح.

وكيفية موته، وتَوَهُّم صورته، وتَذَكُّر نشاطه وتردده وتَأَمُّله للعيش والبقاء، ونسيانه للموت، وانخداعه بمواتاة الأسباب ، وركونة إلى القوة والشباب، وميله إلى الضحك واللَّهو، وغفلته عَمّا بين يديه من الموت الذريع، والهلاك السريع، وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه، وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه، وكيف كان يدبر لنفسه مالًا يحتاج إليه إلى عشر سنين فى وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر، وهو غافل عما يُراد به، حَتى جاء الموت فى وقت لم يحتسبه، فانكشف له صورة المَلَك، وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار. فعند ذلك ينظر فى نفسه أنه مثلهم، وغفلته كغفلتهم، وستكون عاقبه كعاقبتهم[١].

سكرات، وشدائد، وأهوال:

قال أبو حامد الغزالى رحمه اللَّه : اعلم أنه لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها ، لكان جديرًا بأن يتنغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته ، وحقيقًا بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده ، ولا سيما وهو فى كل نَفَس بِصَدَدِهِ، كما قال بعض الحكماء : كَرْبٌ بِيَد سواك لا تدرى متى يغشاك!!

وقال لقمان لابنه، يا بنى! أمر لا تدرى متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك.

والعجب أن الإنسان لو كان فى أعظم اللذات وأطيب مجالس اللَّهو فانتظر أن يدخل عليه جندى فيضربه خمس خشبات ؛ لَتَكَدَّرت عليه لَذَّته وفسد عليه عيشه ، وهو فى كل نَفَس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل!! فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور.

---

(١) الإحياء (٤/٤٣٦) وما بعدها.

أَلَمُ السَّكَراتِ لا يعرفه إلا مَنْ قد ذاقه :

واعلم أن شدة الألم فى سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلاَّ مَن ذَاَقَها ، ومَن لم يَذُقْهَا فإنما يعرفها بالقياس إلا الآلام التى أَدْرَكَهَا ، وإما بالاستدلال بأحوال الناس فى النزع(١) على شدة ما هُم فيه.

فأما القياس الذى يشهد له: فهو أن كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالألم ، فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح، فمهما أصاب العضو جرح أو حريق سَرَى الأثر إلى الروح، وبقدر ما يسرى إلى الروح يَتألم، والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء فلا يصيب الروح إلا بعض الألم. فإن كان من الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقى غيرها فما أعظم ذلك الألم وأشده!!.

والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائها، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح إلا وقد حَلّ به الألم.

وألم النزع - نزع الروح - يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائها؛ فإنه المنزوع المجذوب من كل عِرْق من العروق، وعصب من الأعصاب، وجزء من الأجزاء، ومفصل من المفاصل، ومن أصل كل شعرة وبشرة من المفرق إلى القدم. فلا تسأل عن كربه وألمه حتى قالوا: إن الموت لأشد مِن ضرب بالسيف ونشر بالمناشير، وقَرْضٍ بالمقاريض؛ لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح ، فكيف إذا كان المُتَنَاوَل المُبَاشَر نفس الروح!!!

وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قُوَّته فى قلبه ولسانه، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة ألمه؛ لأن الكرب قد بَالَغَ فيه وتَصَاعَد على

---

(١) النزع: يعنى نزع الروح من الجسد.

قلبه، وبَلَغَ كل موضع منه؛ فهَدَّ كل قوة، وضعف كل جارحة؛ فلم يترك له قوة الاستغاثة. . أما العقل فقد غشيه وَشَوَّشَه، وأما اللسان فقد أبكمه، وأما الأطراف فقد ضعفها. ويَوَد لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة، ولكنه لا يقدر على ذلك.

فإن بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارًا وغرغرةً من حَلْقِهِ وصَدرِه، وقد تَغَيَّر لونه وارْبَدَّ[١] حتى كأنه ظهر منه التراب الذى هو أصل فطرته، وقد جذب منه كل عرق على حياله، فالألم منتشر فى داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالى أجفانه، وتتقلص الشفتان، ويتقلص اللسان إلى أصله، وترتفع الأنثيان إلى أعالى موضعهما، وتخْضَرّ أنامله!!. فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه، ولو كان المجذوب عرقًا واحدًا لكان ألمه عظيمًا، فيكف والمجذوب نفس الروح المتألم لا مِن عرق واحد؛ بل من جميع العروق!!.

ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجًا، فتبرد أولًا قدماه، ثم ساقاه، ثم فخذاه، ولكل عضو سَكْرَة بعد سكرة وكربة بعد كربة، حتى يبلغ بها إلى الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها، ويغلق دونه باب التوبة، وتحيط به الحسرة والنَّدَامَة، قال رسول اللَّه ﷺ: «تُقْبَلُ تَوْبَةُ العبدِ ما لَمْ يُغْرغِرْ»[٢]. . . وقال مجاهد فى قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء: ١٨].

قال: إذا عَايَنَ الرسل - يعنى رسل الموت - فعند ذلك تبدو له صفحة وجه ملك الموت.

---

(١) اربّد: صار خليطًا ما بين السواد والغبرة.

(٢) صحيح: صححه الألبانى (٣٥٣٧) فى سنن الترمذى، وهو عند أحمد (٢/ ١٣٢) فى المسند، وعند غيرهما. و(يغرغر) يعنى تبلغ روحه حلقومه.

فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته، ولذلك كان رسول اللَّه ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ أَعِنِّى على سَكَراتِ الموتِ[١]».

والناس إنما لا يستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به، فإن الأشياء قبل وقوعها إنما تُدْرَك بنور النبوة والولاية؛ ولذلك عَظُم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت، حتى قال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين ادعوا اللَّه تعالى أن يُهَوِّن علىَّ هذه السكرة - يعنى الموت - فقد خِفْت الموت مخَافةً أوقفنى خوفى من الموت على الموت[٢].

حسن الخاتمة، وسوء الخاتمة:

اعلم أن حسن الخاتمة لا يكون إلا لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، أما سوء الخاتمة فإنها تكون لمن كان له فساد فى العقل، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب عليه ذلك حتى ينزل به الموت قبل التوبة، أو يكون مستقيمًا ثم يتغير عن حاله، ويخرج عن سننه، ويقبل على معصية ربه، فيكون ذلك سببًا لسوء خاتمته، والعياذ باللَّه.

صور من سوء الخاتمة:

قيل لرجل عند الموت: قل: لا إله إلا اللَّه. وكان سمسارًا، فأخذ يقول: ثلاث ونصف.. أربعة ونصف.. غلبت عليه السمسرة.

وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله. فجعل يقول: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا وكذا، والبستان الفلانى اعملوا فيه كذا. حتى مات.

وقيل لأحدهم وهو فى سياق الموت: قل: لا إله إلا اللَّه، فجعل يغنى؛ لأنه كان مفتونًا بالغناء، والعياذ باللَّه.

---

(١) رواه الترمذى (٩٧٨)، وأحمد (٦/ ٦٤، ٧٠، ٧٧) فى المسند.

(٢) الإحياء (٤/ ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧).

وقيل لشارب خمر عند الموت: قل: لا إله إلا اللَّه، فجعل يقول: اشرب واسقنى. نسأل اللَّه العافية.

صور من حسن الخاتمة:

دخل صفوان عليٌ بن سليم عَلَى محمد بن المنكدر، وهو فى الموت فقال له: يا أبا عبد اللَّه! كأنى أراك قد شقَّ عليك الموت، فما زال يهوِّن عليه ويتجلى عن وجه محمد، حتى لكأن وجهه المصابيح، ثم قال له: لو ترى ما أنا فيه لقرَّت عينك. ثم مات رحمه اللَّه.

وقال محمد بن ثابت البنانى: ذهبت ألقِّن أبى وهو فى الموت فقلت: يا أبت! قل: لا إله إلا اللَّه. فقال: يا بنى، خل عنى، فإنى فى وردى السادس أو السابع!!.

ولما احتُضر عبد الرحمن بن الأسود بكى، فقيل له: ممَّ البكاء؟ فقال: أسفًا على الصلاة والصوم. ولم يزل يتلوا القرآن حتى مات.

وسمع عامر بن عبد اللَّه المؤذنَ وهو فى مرض الموت فقال: خذوا بيدى إلى المسجد. فدخل مع الإمام فى صلاة المغرب، فركع ركعة ثم مات رحمه اللَّه.

حديث البراء بن عازب ﷺ الجامع لأحوال المحتضرين وشدائد الموت، وكيفية استخراج الروح

وإليك حديث البراء بن عازب وفيه أهوال الموت وشدادئه، وأهوال القبور، والسؤال والحساب.

قال البراء بن عازب: خرجنا مع رسول اللَّه ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر، ولما يلحد، فجلس رسول اللَّه ﷺ وجلسنا حوله، كأنما على رءوسنا الطير، فجعل يرفع بصره، وينظر إلى السماء ويخفض بصره، وينظر إلى الأرض، ثم قال: «أعوذ باللَّه من عذاب القبر». قاله امرارًا، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان فى إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا، جاءه ملك فجلس عند رأسه فيقول: اخرجى أيتها النفس الطيبة إلى مغفرة من اللَّه ورضوان، فتخرج نفسه فتسيل كما يسيل قطر السقاء». وإن كنتم ترون غير ذلك.

«وتنزل الملائكة من الجنة بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس، ومعهم أكفان من أكفان الجنة وحنوط من حنوطها، فيجلس منه مد البصر، فإذا قبضها الملك لم يدعوها فى يده طرفة عين» قال: فذلك قوله تعالى : ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]. قال: «فتخرج نفسه كأطيب ريح وجدت، فتخرج به الملائكة فلا يأتون على جند فيما بين السماء والأرض إلا قالوا: ما هذه الروح؟ فيقال: فلان، بأحسن أسمائه حتى ينتهوا به أبواب سماء الدنيا، فيفتح له، ويشيعه من كل سماء مقرَّبوها حتى ينتهى إلى السماء السابعة، فيقال: اكتبوا كتابه فى عليين ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المطففين: ١٩-٢١]. فيكتب كتابه فى عليين، ثم يقال: ردوه إلى الأرض فإنى وعدتهم أنى منها خلقتهم، وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى» وقال: «فيرد إلى الأرض، وتعاد روحه فى جسده، فيأتيه ملكان شديدًا الانتهار فينتهرانه، ويجلسان فيقولان: من ربك؟ وما

دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: ربى اللَّه ودينى الإسلام، فيقولان: فما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: جاءنا بالبينات من ربنا فآمنت به وصدقت». قال: وذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

قال: «وينادى منادٍ السماء أن قد صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وأرُوه منزله منها ويفسح له مد البصر، ويمثل عمله فى صورة رجل حسن الوجه طيب الرائحة حسن الثياب فيقول: أبشر بما أعد اللَّه لك أبشر برضوان من اللَّه وجنات فيها نعيم مقيم فيقول: بشرك اللَّه بخير، من أنت فوجهك الذى جاء بالخير؟ فيقول: هذا يومك الذى كنت توعد - أو الأمر الذى كنت توعد - أنا عملك الصالح فواللَّه ما علمتك إلا كنت سريعًا فى طاعة اللَّه بطيئًا عن معصية اللَّه فجزاك اللَّه خيرًا. فيقول: يا رب أقم الساعة كى أرجع إلى أهلى ومالى».

قال: «فإن كان فاجرًا وكان فى إقبال من الدنيا وانقطاع من الآخرة جاء ملك، فجلس عند رأسه فقال: اخرجى أيتها النفس الخبيثة، أبشر بسخط من اللَّه وغضبه، فتنزل الملائكة سود الوجوه معهم مسوح من نار، فإن قبضها الملك قاموا فلم يدعوها فى يده طرفة عين» قال: «فتفرق فى جسده فيستخرجها، تقطع منها العروق والعصب كالسفود الكثير الشعب فى الصوف المبتل، فتؤخذ من الملك فتخرج كأنتن جيفةٍ وجدت فلا تمر على جند فيما بين السماوات والأرض، إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة، فيقولون: هذا فلان بأسوأ أسمائه حتى ينتهوا به إلى سماء الدنيا فلا يفتح لهم، فيقولون: ردوه إلى الأرض إنى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها أعيدُهم ومنها أخرِجُهم تارةً أُخرى». قال: «فيُرمَى بِهِ مِنَ السَّماءِ» قال: وتلا هذه الآية: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

قال: « فيُعادُ إلى الأرض وتعادُ فيه رُوحه، ويأتيه ملكان شديدَا الانتهارِ ، فينتهرانِه ويجلسانِ ، فيقولان: مَن ربك ؟ وما دينك؟ فيقول: لا أدرى . فيقولان : فما تقولُ فى هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فلا يهتدى لاسمه، فيقال: محمد، فيقول: لا أدرى سمعت الناس يقولون ذلك » . قال: « فيقال : لا دريت فيضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، ويمثل له عمله فى صورة رجل قبيح الوجه، منتن الريح، قبيح الثياب، فيقال: أبشر بعذاب اللَّه وسخطه، فيقول : من أنت فوجهك الذى جاء بالشر؟ فيقول : أنا عملُك الخبيث ، فواللَّه ما علمتك إلا كنت بطيئًا عن طاعة اللَّه سريعًا إلى معصية اللَّه » . وقال عمر فى حديث عن المنهال عن زاذان عن البراء عن النبى : «فيقيَّضُ له أصمُّ أبكمُ بيدِه مرزبَّةٌ لو ضُرِبَ بها جبلٌ صار تُرابًا » . أو قال: « رَمِيمًا فيضربه بها ضربة تسمعها الخلائق إلا الثقلين، ثم تعاد فيه الروح فيضربه ضربة أخرى » . لفظ أبى داود الطيالسى ، وخرجه عليُّ بن معبد الجهنى من عدة طرق بمعناه: وزاد فيه: « ثم يقيَّضُ له أَعْمَى أصمُّ مَعَهُ مرزبَّةٌ من حديد فيضربه بها ضربة فيدق بها من ذؤابته إلى خصره ثم يعاد فيضربه ضربة فيدق بها من ذؤابته إلى خصره » وزاد فى بعض طرقه عند قوله مرزبة من حديد: « لو اجتمع عليه الثقلان لم يتقولها فيضرب بها ضربة فيصير ترابًا، ثم تعاد فيه الروح، فيضرب بها ضربة يسمعها من على الأرض غير الثقلين، ثم يقال: افرشوا له لوحين من نار، وافتحوا له بابا إلى النار، فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب إلى النار» . وزاد فيه عند قوله: «وانقطاع من الدنيا » : نزلت به ملائكة غلاظ شداد معهم حنوطٌ من نار وسرابيل من قطران يحتوشونه ، فتنتزع نفسه كما ينتزع السفودُ الكثير العشب من الصوف المبتلِّ يقطع معها عروقه فإذا خرجت نفسه لعنه كل ملك فى السماء وكل ملك فى الأرض».

وخرج أبو عبد الرحمن النسائى بسنده عن أبى هريرة أن رسول اللَّهﷺ قال: « إذا احتضر المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون :

اخرجي راضية مرضيًّا عنك إلى رَوْحٍ ورَيْحانٍ ، وربٍّ راضٍ غيرِ غضبان . فتخرج كأطيب ريح المسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضًا حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون : ما أطيب هذه الريح التى جاءتكم من الأرض؟ فيأتون به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحًا من أحدكم بغائبه يقدم عليه ، يسألونه: ما فَعَل فلان؟ ما فعلت فلانة؟ فيقولون : دعوه فإنه كان فى غم الدنيا . فإذا قال: ما أتاكم؟ قالوا: ذهب به إلى أمه الهاوية، وإن الكافر إذا احتضر أتته ملائكة العذاب بسمح فيقولون: اخرجي ساخطة مسخوطًا عليك إلى عذاب اللَّه ، فتخرج كأنتن ريح خبيثة حتى يأتوا به باب الأرض، فيقولون: ما أنتن هذه الريح . حتى يأتوا به أرواح الكفار»[1] .

إن علينا أن نتذكر هذه الأهوال حتى تضيء بصيرتنا تارة أخرى، ونقهر شهواتنا، كما قال اللَّه تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف] . ومن حديث ابن عباس - رضى اللَّه عنه - أنه ﷺ قال: «ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة، أو ذنب هو مقيم عليه لا يفارقه حتى يفارق الدنيا، إن المؤمن خُلق مفتنًا، توابًا، نسّاءً إذا ذُكِّر ذَكَرَ»[2] .

فإياك وترك الذنب بلا توبة فإنه يورث الران، والران يورث الغفلة، والغفلة إن سكنت القلب أعمته، وأظلمته فلا يقدر على التوبة، فعجل بالعودة إلى الحق، ولا تتثاقل عن الرجوع إلى اللَّه تعالى:

ونـاد فـى ظـلـم الـديـاجـى   يـا مـجـيـب الـدعـوات
اعـف عـنـا يـا رحـيـم   وأقـلـنـا الـعـثـرات

* * *

(١) صحيح: خرجه النسائى (٨/٤) فى الجنائز ، والحاكم (١/٣٥٣) وصححه الألبانى (١٦٧) فى صحيح الجامع .

(٢) صحيح: خرجه الطبرانى ، وصححه الألبانى (٩٢٧٦) فى الصحيحة .

هؤلاء وحسن الخاتمة، وسوء الخاتمة

سلمان الفارسى رضى اللَّه عنه :

ولما حضر سليمان الوفاة بكى، فقيل له ما يبكيك قال: ما أبكى جزعًا على الدنيا، ولكن عهد إلينا رسول اللَّه ﷺ أن تكون بُلْغَة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب. . ، فلما مات سلمان نُظِرَ فى جميع ما ترك فإذا قيمته بضعة عشر درهمًا أو بضعة وعشرون درهمًا أو بضعة وثلاثون درهمًا(١).

أبو الدرداء رضى اللَّه عنه :

عن معاوية بن قرة أن أبا الدرداء اشتكى فدخل عليه أصحابه فقالوا: ما تشتكى؟ قال: أشتكى ذنوبى. قالوا: فما تشتهى؟ قال: اشتهى الجنة. قالوا: أفلا ندعو لك طبيبًا؟ قال: هو الذى أضجعنى.

عن إسماعيل بن عبيد اللَّه عن أم الدرداء، أن أبا الدرداء لما احتُضر جعل يقول: من يعمل لمثل يومى هذا ؟ من يعمل لمثل ساعتى هذه؟ من يعمل لمثل مضجعى هذا ؟ ثم يقول: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

إسماعيل بن عبيد اللَّه: أن أبا مسلم قال: جئت أبا الدرداء: وهو يجود بنفسه فقال : ألا رجل يعمل لمثل مصرعى هذا؟ ألا رجل يعمل لمثل ساعتى هذه؟ ثم قُبض - رحمه اللَّه -.

وعن عوف بن مالك الأشجعى قال: رأيت فى المنام كأنى أتيت مرجًا أخضر فيه قبة من أدم حولها غنم ربُوض تجتر وتبعر العجوة فقلت: لمن هذه؟ فقيل: لعبد الرحمن بن عوف. فانتظره حتى خرج من القبة فقال: يا عوف بن

---

(١) صحيح: الطبرانى (١/١٩٦) فى الكبير . وبلغة: بلاغ لا فضل له.

مالك هذا ما أعطانا اللَّه - عز وجل - بالقرآن، ولو أشرفت على هذه الثَّنِيَّة لرأيت ما لم تر عينك وسمعت ما لم تسمع أذنك ولم يخطر على قلبك، وأعده اللَّه - عز وجل - لأبى الدرداء لأنه كان يدفع الدنيا بالراحتين والنَّحر.

معاذ بن جبل رضى اللَّه عنه :

ولما حضر معاذًا - رضى اللَّه عنه - الموتُ قال: اللَّهم إنى قد كنتُ أخافك، وأنا اليوم أرجوك ، اللَّهم إنك تعلم أنِّى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لِجَرْى الأنهار ولا لغرس الأشجار ، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء عند حِلَق الذِّكر.

ولما اشتد به النزع، ونزع نزعًا لم ينزعه أحد ، كان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال : ربِّ ما أحنقنى[1] حنقك ، فَوَعِزَّتك إنك تعلم أن قلبى يحبك.

حذيفة بن اليمان رضى اللَّه عنه :

عن زياد مولى ابن عياش، قال: حدثنى من دخل على حذيفة فى مرضه الذى مات فيه فقال: لولا أنى أرى أن هذا اليوم آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة لم أتكلم به، اللَّهم إنك أعلم أنى كنت أُحِب الفقر على الغنى، وأُحب الذلة على العز، وأحب الموت على الحياة، حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم . ثم مات - رحمه اللَّه -.

وعن أبى وائل قال: لما ثقل حذيفة أتاه أناس من بنى عبس ، فأخبرنى خالد بن الربيع العبسى قال : أتيناه وهو بالمدائن حين دخلنا عليه جوف الليل فقال لنا : أى ساعة هذه ؟ قلنا : جوف الليل أو آخر الليل. فقال : أعوذ باللَّه من صباح إلى النار. ثم قال: أجئتم معكم بأكفان؟ قلنا: نعم . قال : فلا

---

(١) الحنق: شدة الغيظ.

تُغالوا بأكفانى ؛ فإنه إن يكن لصاحبكم عند اللَّه خير فإنه يبدَّل بكسوته كسوةً خيرًا منها وإلا يُسلب سلبًا .

بلال بن رباح رضى اللَّه عنه :

ولما حضرت الدفاةُ بلالًا ، قالت امرأته: وابلالاه، واحزناه.

فقال: واطرباه، غدًا نلقى الأحبة، محمدًا وصحبه

خاتمة معاوية بن أبى سفيان رضى اللَّه عنه:

لما حضرت معاوية بن أبى سفيان الوفاة قال: أقْعِدُونى . فَأُقْعِد، فجعل يُسَبِّح اللَّه تعالى ويذكره، ثم بكى وقال: تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط ؟! أَلَا كان هذا وغصن الشَّباب نَضِر رَيَّان ! وبكى حتى علا بكاؤه وقال: يا رب ارحم الشيخ العاصى، ذا القلب القاسى، اللَّهم أَقِل العثرة، واغْفِر الزلة ، وعد بحلمك على مَنْ لم يَرْجُ غيرك ولم يثق بأحد سواك.

خاتمة عامر بن عبد قيس :

ولما حضرت عامر بن عبد القيس الوفاة بكى؛ فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ما أبكى جزعًا من الموت ولا حرصًا على الدنيا، ولكن أبكى على ما يفوتنى من ظمأ الجواهر، وعلى قيام الليل فى الشتاء.

خاتمة حمد بن المنكدر :

ولما حضرت ابن المنكدر الوفاة بكى؛ فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: واللَّه ما أبكي لذنب أعلم أنى أتيته، ولكن أخاف أنى أتيت شيئًا حسبته هَيِّنًا ، وهو عند اللَّه عظيم.

خاتمة عبد الملك بن مروان :

ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر إلى غَسَّال بجانب دمشق يلوى ثوبًا بيده ، ثم يضرب به المغسلة ، فقال عبد الملك: ليتنى كنتُ غسالًا

آكلُ مِنْ كسب يدى يومًا بيوم ولم آلِ من أمرِ الدُّنيا شيئًا . . فبلغ ذلك أبا حازم فقال: الحمد للَّهِ الذى جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه، وإذا حضرنا الموت لم نَتَمَنَّ ما هم فيه

وقيل لعبد الملك بن مروان فى مرضه الذى مات فيه : كيف تجدك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أجدنى كما قال اللَّه تعالى : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤]. . . ومات.

خاتمة أحمد بن حنبل - رحمه اللَّه - :

وعن عبد اللَّه بن أحمد بن حنبل قال : لَمَّا حضرت أبى الوفاة جلستُ عنده وبيدى الخرقة لأشد بها لحييه، فجعل يعرق ثم يفيق. ثم يفتح عينيه ويقول بيده هكذا : لا بعد لا بعد . ففعل هذا مرّة وثانية . فلما كان فى الثالثة قلت له : يا أبة أىّ شىء هذا قد لهجت به فى هذا الوقت؟ تعرف حتى نقول : قد قضيت . ثم تعود فتقول : لا بعد لا بعد. فقال لى : يا بنى ما تدرى ما قلتُ ؟ قلتُ : لا . فقال : إبليس لعنه اللَّه قائم حذائى عاضّ على أنامله يقول لى : يا أحمد فُتَّنى . فأقول : لا بعد لا بعد حتى أموت.

وعن بنان بن أحمد القصبانى أنه حضر جنازة أحمد بن حنبل فيمن حضر. قال : فكانت الصفوف من الميدان إلى قنطرة باب القطيعة ، وحزر من حضرها من الرجال ثمان مائة ألفٍ ، ومن النساء ستين ألف امرأة.

وعن موسى بن هارون قال: يقال إن أحمد بن حنبل لمَّا مات مُسحت الأمكنة المبسوطة التى وقف الناس عليها للصلاة فحزر مقادير الناس بالمساحة على التقدير ستمائة ألف وأكثر، سوى ما كان فى الأطراف والجوالى والسطوح والمواضع المتفرقة أكثر من ألف ألف.

وقال أبوبكر المروزى: رأيت أحمد بن حنبل فى النوم كأنه فى روضة وعليه حلّتان خضراوان، وعلى رأسه تاج من النور، وإذا هو يمشى مشية لم أكن أعرفها فقلت: يا أحمد ما هذه المشية التى لم أكن أعرفها لك؟ فقال: هذه مشية الخُدام فى دار السلام.

فقلت: ما هذا التاج الذى أراه على رأسك؟ فقال: إن ربى عز وجل أوقفنى وحاسبنى حسابًا يسيرًا وحبانى وقرّبنى وأباحنى النظر إليه، وتوّجنى بهذا التاج وقال لى: يا أحمد هذا تاج الوقار توّجتك به كما قلت: القرآنُ كلامى غير مخلوق.

عبد اللَّه بن المبارك :

وفتح عبد اللَّه بن المبارك عينه عند الوفاة، وضحك وقال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾ [الصافات: ٦١].

وقيل: لما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر (مولاه): اجعل رأسى على التراب ؛ فبكى نصر، فقال له : ما يبكيك؟ قال: ذكرتُ ما كنتَ فيه من النعيم وأنت هو ذا تموت فقيرًا غريبًا . قال: اسكت ، فإنى سألت اللَّه تعالى أن يحيينى حياة الأغنياء، وأن يميتنى موت الفقراء. ثم قال له: لَقِّنّى ، ولا تعد علىَّ ما لم أتكلم بكلام ثان.

خاتمة الإمام الشافعى - رحمه اللَّه - :

ودخل المزنى على الشافعى رحمة اللَّه عليهما فى مرضه الذى توفى فيه، فقال له: كيف أصبحت يا أبا عبد اللَّه ؟، فقال: أصبحتُ من الدنيا راحلًا، وللإخوان مفارقًا، ولسوء عملى مُلاقيًا، ولكأس المنية شاربًا، وعلى اللَّه تعالى واردًا، ولا أدرى أروحى تصير إلى الجنة فأهنيها ، أم إلى النار فأعزيها . . ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى جعلتُ رجائى نحو عفوك سُلَّمَا
تعاظمنى ذنبى فلما قرنته بعفوك ربى كان عفوك أعظما
فَما زِلْتَ ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو مِنَّةً وتَكَرُّمَا
ولولاك لم يُغْوَ بإبليس عابِدٌ فكيف وقد أغوى صَفِيَّك آدَما

فهذه أقوالهم عند الموت، وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم، فغلب على بعضهم الخوف، وعلى بعضهم الرجاء، وعلى بعضهم الشوق والحب، فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله، واللَّه أعلم.

خاتمة ابن هانئ الشاعر الخبيث

شاعر فاجر وهو شاعر المعز لدين اللَّه العبيدى الخبيث المدعى كذبًا أنه فاطمى.

وكان مما قال للمعز:

ما شِئْتَ لا ما شاءتِ الأقْدارُ فاحْكُمْ فَأَنْتَ الواحِدُ الْقَهَّارُ

وقال له أيضًا:

نَدْعُوهُ مُنْتَقِمًا عَزِيزًا قادِرًا غَفَّارَ مُوبِقَةِ الذُّنُوبِ رَحِيمَا

وقال فيه أيضًا:

أدار كما شاء الورى وتحيزت على السبعة الأفلاك أنمله العشر

وقال فى هذا القزم أيضًا:

أرى مدحه كالمدح للَّهِ إنه قنوتٌ وتسبيحٌ يحط من الوزر

وقال أيضًا، قبحه اللَّه وأخزاه:

ولطالما زاحمت تحت ركابه جبريل

ومن ذلك قوله - قال ابن الأثير: ولم أرها فى شعره ولا فى ديوانه -:

حـل بـرقـادة الـمـسـيـح حـل بـهـا آدم ونـوح
حل بها اللّه ذو المعالى فـكـل شـىء سـواء ريـح

فهل أغنى عنه المعز؟

قال ابن كثير: استصحبه المعز الفاطمى من بلاد القيروان حين توجه إلى مصر، فمات ببعض الطريق، وجد مقتولًا على حافة البحر فى رجب سنة ٣٦٢هـ.

ومما قيل فى محمد بن هانئ أيضًا:

خرج من القصر فأصيب بمرض، فكان يعوى كالكلب على فراشه، ويقول: أنا الواحد القهار. وأخذ يبكى ويقول:

أبعين مفتقر إليك نظرت لى فأهنتنى وقذفتنى من حالق
لست الملومَ أنا الملومُ لأنَّنِى علقت آمالى بغير الخالق

من آثر غير اللّه عُذب به.. غضب عليه المعز.. وقتل فى النهاية.

خاتمة ابن أبى دؤاد المغزلى الذى عادى الإمام أحمد وأهل السنة:

هذا الذى تكلم فى عقيدة أهل السنة وشَانَها، وتكلم فى أحمد بن حنبل وعاب معتقده.

بسبب ابن أبى دؤاد هذا قتل أحمد بن نصر الخزاعى وسجن الإمام أحمد وعذب بالسياط، ودعا عليه الإمام أحمد؛ فحبسه اللّه فى جسده كما حبس الإمام، ودخل عليه وعاده عبد العزيز الكنانى، وقال له: لم آتك عائدًا، بل لأحمد اللّه أن سجنك فى جلدك.

قال ابن كثير: ابتلاه اللّهُ بالفالِجِ قبل موته بأربع سنين حتى بقى طريحًا فى فراشه، لا يستطيع أن يرحك شيئًا من جسده، وحرم لذة الطعام والشراب

والنكاح وغير ذلك ؛ جعل نصف جسده لو سقط عليه ذباب فكأنما نهشته السباع، والنصف الآخر لو نهشته السباع لم يحس بها.

وقد دخل عليه بعضهم قال: واللَّه ما جئتك عائدًا، وإنما جئتك لأعزيك فى نفسك وأحمد اللَّه الذى سجنك فى جسدك الذى هو أشد عليك عقوبة من كلّ سجن، ثم خرج عنه داعيًا عليه بأن يزيده اللَّه ولا ينقصه مما هو فيه، فازداد مرضًا إلى مرضه. وقد صودر فى العام الماضى سنة ٢٣٨ بأموال جزيلة جدًّا ، ولو كان يحمل العقوبة لوضعها عليه المتوكل ، وكذا ابنه أبو الوليد محمد، صودر بألف ألف دينار ومائتى ألف دينار ومات قبل أبيه بشهر.

فى يوم السبت، لثلاث خلون من ربيع الآخر، وأمر بمصادرته فحمل مائة ألف وعشرين ألف دينار. ومن الجواهر النفيسة ما يقوّم بعشرين ألف دينار، ثم صولح على ستة عشر ألف ألف درهم، ثم نفى أهله من سامرا إلى بغداد مهانين، قال ابن جرير: فقال فى ذلك أبو العتاهية

لو كنت فى الرأى منسوبًا إلى رشد وكان عزمكَ عزمًا فيه توفيقُ
لكان فى الفقه شغل لو قَنَعْتَ به عن أن تقول كتاب اللَّه مخلوقُ
ماذا عليك وأصل الدين يجمعهم ما كان فى الفرع لولا الجهل والموق

انظر كيف أذله اللَّه وحبسه فى جسده، وأهين قبل موته.

عاشوا على غش وماتوا على غش

قال الأستاذ/ عبد الحميد بن عبد الرحمن السحيبانى فى كتابه (التحذير من سوء الخاتمة) :

قال الحافظ ابن رجب الحنبلى - رحمه اللَّه - : « قال عبد العزيز بن أبى رواد : حضرت رجلًا عن الموت يلقن الشهادة: لا إله إلا اللَّه، فقال فى آخر ما قال: هو كافر بما تقول . ومات على ذلك . قال فسالت عنه فإذا هو مدمن خمر. وكان عبد العزيز يقول: اتقوا الذنوب فإنها هى التى أوقعته».

ومنذ سنوات جرت حادثة فى القصيم، وتطايرت أخبارها هنا وهناك، وحاصلها أن رجلًا فى حال احتضاره ظهر عليه من الاعتراض على ربه ما ظهر، فجاء بعض أصحابه ممن كان يصلى معه فى المسجد - واللَّه أعلم بما فى القلوب - وقال : يا عبد اللَّه، هذا المصحف الذى كنت تقرأ فيه، فاتق اللَّه فى نفسك، ولقنه كلمة التوحيد، فقال: هو كافر بالمصحف وبلا إله إلا اللَّه . وختم له على ذلك الحال، فنعوذ باللَّه - تعالى - من الخذلان.

قال ابن أبى الدنيا - رحمه اللَّه - : « حدثنى أبو الحسن بن أحمد الفقيه قال : نزل الموت برجل كان عندنا فقيل له : استغفر اللَّه . فقال : ما أريد . فقيل له : قل : لا إله إلا اللَّه . فقال : ما أقول لجهد جهده ثم مات .

وسمعت أن رجلًا كان كثير الصوم والتعبد اشتد به الألم فافتتن ، فسمعته يقول : لقد قلبنى فى أنواع البلاء ، فلو أعطانى الفردوس ما وَفَّى بما يجرى علىَّ . ثم صار يقول: وأى شىء فى هذا الابتلاء من المعنى إن كان موتًا فيجوز، فأما التعذيب فأى شىء المقصود به .

الصبر عند فقد الأحبة

كتب اللَّه تعالى الفناء على أهل هذه الدار،وجعل حياة الناس فيها بمقدار ، فلكل من الناس لحظة ينقطع فيها الأجل،ونحن إذا علمنا هذا وتيقنا منه، بقى أن نشير إلى أن الموت من أكبر مصائبه أنه قد يصطفى منا الأحبة فينقلهم إلى الدار التى لا نملك إليها ذهابًا حتى يأذن اللَّه تعالى لنا بالانتقال إليها، ويحس المحبون بألم الفراق كما أحس به من ذى قبل متمم بن نويرة لما فقد أخاه مالك فى حروب الردة فقال:

فلما تفرقنا كأنى ومالكًا لطول اجتماعٍ لم نبت ليلة معًا

ومع أن الفقد مصيبة إلا أن اللَّه تعالى من رحمته أن جعل فى المحنة منحة، وفى الرزية والبلية عطية وهبة، وفى الشدة جعل خيوط اليسر والسعة، وفى الألم أملًا، وفى النقمة نعمة، والحمد لله على القضاء حلوه ومره، خيره وشره، فهذه عدة الصابرين عند وقوع المحن.

وأول الأشياء عند فقد الأحبة يجب تذكرها أن الموت قضاء قضى اللَّه تعالى به على عباده جميعًا ، فليكن أول ما يطرق الآذان ساعتها هو آيات اللَّه تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]. ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران] . ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

وأخشى ما أخشاه أن كثيرًا من الناس قد أصابتهم بلادة الألفة من كثرة قراءة هذه الآيات وترديدها ، حتى صارت تقال كأن لم تقل، وأنها عبارة لموقف سرعان ما تزول بزوال الموقف ومضى وقته، فإياك وترديدها باللسان فقط دون الاعتبار بمعناها،وإلا كان الدواء فى غير موضعه ، والحرث على البحر.

إن معنى هذه الآيات أن الموت لا يفرق بين عدو وحبيب، أو غال أو

رخيص، أو كبير وصغير، أو ذكر أو أنثى ، أو صحيح وسقيم ؛ لأنه قدر محتوم لا مفر لأحد منه ولا أمان، فما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب، وأن من هو خير منه ومنك قد سبقه إلى هذا المصير، وفى هذا القبر، وأن من هو شر منه قد فُعل به، فالكل ماضٍ إلى هذا المصير لا محالة.

إن الموت حدث مؤلم، وقبض موجع، وأمر مزعج، بل هو أثقل نكد قد يمر بالإنسان فى عمره، نارٌ تسعر فى الصدر، وحُرقة تشتعل فى القلوب يحترق بها الكبد، ويفتت بها العضد، فقد ذهب الحبيب والريحانة ولكن.. رُبَّ أمر قد ذهب لنا فى عواقبه الرضا.

فلا تكره المركوه عند حلوله، فإنَّ النعمة قد تكون فى طى المكاره.

وهنا يجب الانتباه إلى أن ملذات الدنيا مشوبه بالنغص والتكدير، فهى سراب، عماراتها وإن جنت خراب، وتجمع لتفرق، وتسعد لتحزن، تصحح لتمرض، توجد لتعدم، تحيى لتعدم، طبعت الدنيا على الضُّر قبل النفع، ولا يزال ساكن الدنيا فى محنة وبلية حتى يلقى اللَّه تعالى.

فمن الصبر أن تعلم أن الكل سيصاب لا محالة، ولولا مصائب الدنيا لخرجنا إلى الحساب مفاليس وهذا مما يخفف عنك المصيبة فينشرح صدرك، وتسكن آلامك، وتتسلى فى مصيبتك والمصاب حقًّا من حُرم الثواب فى تلكم اللحظات.

والتأمل فى آيات القرآن تارة أخرى:

إذ قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

وهذا هو العلاج الدقيق الذى يصفه القرآن لكل مصاب فى حبيب أو خلٍّ أو أخ أوولد له، بل هو أبلغ العلاج للعبد فى عاجله وآجله، فالمال والنفس والملك كله للَّهِ عارية سترد لا محالة ، وإنما هى فى حوزتك على سبيل الإعارة ، فمن الخيانة والغدر أن تحزن إذا استردها صاحبها.

وهل فى استراداد صاحب العارية ظلم؟ ليتك تفكر فى هذه الكلمات لتعلم أن الكل مردود إلى اللَّه تعالى ؛ حبيبك - عدوك - وأنت لا محالة عائد مردود إلى اللَّه تعالى فاهتف ساعتها : إنا للَّه وإنا إليه راجعون. فإذا الصلاة والرحمة والهدى.

لما مات لعبد اللَّه ابن مطرف ولد قال : لو أن الدنيا كلها وما فيها لى فأخذها اللَّه عز وجل منى ، ثم وعدنى عليه شربة من ماء لرأيتها لتلك الشربة أهلًا ، فكيف بالصلاة والرحمة والهدى.

واعلم أن أشد الناس بلاءً الأنبياء فالأمثل فالأمثل ، ولا يزال البلاء بكَ وبأهلكَ حتى تلقى اللَّه وما عليك خطيئة ، وما أصيب مؤمن فى ثلاثة من أولاده فتمسه النار [إلَّا] تحلة القسم ، لقد قال ﷺ لامرأة - كما فى رواية مسلم - مات لها ثلاثة أولا : «لَقَدِ احْتَظَرْتِ بِحظارٍ مِنَ النَّار» . أى احتميت بحمى عظيمًا من النار.

وكان لإبراهيم الحربى - أحد المحدثين - ولد فمات فلما جاءه حمد بن خلف يعزيه قال: الحمد لله، واللَّه لقد كنت على حبى له أشتهى موته. فقال محمد: أنت عالم الدنيا تقول ذلك فى صبى قد حفظ القرآن ولقنته الحديث الفقه. قال: نعم، أو يخفى عليك أجر تقديمه. وفوق ذاك فقد رأيت فى منامى كأن القيامة قامت ، ورأيتُ صبيانًا فى أيديهم قلال فيها ماء يستقبلون الناس ويسقونهم وكان اليوم حارا شديدٌ حره، فقلت لأحدهم اسقنى من هذا الماء.

قال : فنظر إلىّ وقال : لستُ أبى . قال : قلت : من أنتم؟ .

قال : نحن الصبية الذين متنا واحتسبنا آباؤنا ننظرهم لنسقيهم الماء .

قال إبراهيم الحربى : ولذلك اشتهيت موته ، والحمد لله رب العالمين .

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة - رضى اللَّه عنه - يقول اللَّه تعالى : «ما لعبدى المؤمن عندى جزاءٌ إذا قبضت صَفِيَّهُ من أهل الدنيا ثم احتسبه إلَّا الجنة »[(١)] .

فعند اللَّه نحتسب كل حبيب وكل صفى سبقنا إليه .

وعن أبى سنان قال : دفنت ابنى سنانًا ، وأبو طلحة الخولانى جالس على شفير القبر ، فلما أردت الخروج أخذ بيدى ، فقال : ألا أبشرك يا أبا سنان . قلت : بلى .

فقال : حدثنى الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزب عن أبى موسى الأشعرى أن رسول اللَّه ﷺ قال : « إذا مات ولد العبد ، قال اللَّه لملائكته : قبضتم ولد عبدى ؟ فيقولون : نعم . فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم . فيقول : ماذا قال عبدى ؟ فيقولون : حَمِدَكَ واسترجع . فيقول اللَّه : ابنوا لعبدى بيتًا فى الجنة ، وسمُّوه بيت الحمد »[(٢)] . واسترجع : أى قال : إنا للَّهِ وإنا إليه راجعون .

فإنَّا للَّهِ وإنَّا إليه راجعون فى كل كبير وصغير ، وأب وأم ، وأخ وولد ، وزوج ، وكل مسلم أحببناه لكن ربه تعالى عجّل به لئلا يتلوث من دنايا الدنيا ودنسها بشىء والحمد لله على ذلك كثيرًا ، فاعلم أن الصبر عقباه إلى الجنة

---

(١) رواه البخارى (٦٤٢٤) فى الرقاق .

(٢) حسن : خرجه الترمذى (١٠٢١) فى الجنائز ، وحسنه الألبانى هناك .

والصلاة والهدى والرحمة والمغفرة، واحرص على أن تكون من هؤلاء فذلك يخفف من المصيبة.

ومن وسائل التسلى عند المحبة تذكر مصيبتنا فى رسول اللَّه ﷺ فقد انقطع الوحى، وكل مصيبة حلّت بنا فى موته عليه الصلاة والسلام وفى الحديث الصحيح: «إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصيبته بى، فإنها من أعظم المصائب»(١).

إنه التعزى فى المصيبة بمصيبة أكبر وعندئذ تصغير المصيبة، فلو ماتت الزوجة لاستبدلت، ولو مات الولد لأنجب غيره، فالولد والزوج موجود، والنبى ﷺ مفقود لا عوض له، وبذلك تسكن المصائب عندما تعلم أن مصائب الدنيا التى نحياها إنما هى بسبب وفاته ﷺ، ولو كان حيًّا لما أصبنا بها.. وإنى لأعلم واللَّه أنها منزلة عظيمة لكن ليس من الصعب إدراكها.

واعلم أن ما أصابك ما كان ليخطئك: وما أخطأك: ما كان ليصيبك. وهو قول اللَّه تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

فلا تحب تعجيل ما أخرَّ اللَّه، ولا تكره وقوع ما أراد اللَّه تعالى، وقل كما قال عمر بن عبد العزيز لما مات ولده: قد رضيه اللَّه لى، أفلا أرضاه لنفسى. ويا للروعة.

مات ولد لأنس - رضى اللَّه عنه - فدفنه ثم قال عند قبره: الحمد لله،

---

(١) صحيح: صححه الألبانى (١١٠٦) فى الصحيحة - صحيح الجامع (٣٤٧) عن ابن عباس - رضى الله عنهما.

اللَّهم عبد وابن عبدك وقد ردَّ إليك فارأف به وارحمه، وجاف الأرض عن بدنه، وافتح أبواب السماء لروحه، وتقبله بقبول حسن، ثم انصرف رحمه اللَّه وأكل وشرب وأصاب أهله ولسان حاله: كل ذلك فى كتاب إن ذلك على اللَّه يسير.

وكان أبو ذر لا يعيش له ولدٌ فقيل له: إنك امرؤ لا يعيش لك ولد فقال: الحمد للَّهِ كل ذلك فى كتاب، الحمد للَّه الذى يأخذهم من دار الفناء، ويدخرهم فى دار البقاء.

وتموت ابنة لعبد اللَّه بن عباس - رضى اللَّه عنهما - وكان فى طريقه إلى مكة راكبًا على دابة له: فنزل عن دابته وصلى ركعتين ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: الحمد للَّهِ، وإنا للَّهِ، عورة سترها اللَّه، ومئونة كفاها اللَّه، وأجر ساقه اللَّه. ثم مضى فى دربه.

ومات لعبد اللَّه بن عامر سبعة أبناء فى يوم واحدٍ وتصور المصاب جيدًا فقال: (الحمد لله، إنى مُسْلِمٌ مُسَّلِم. ثم أنشد:

يمضى الصغير إذا انقضت أيامه إثر الكبير ويولد المولودُ
والناس فى قسم المنية بينهم كالزرع منه قائم وحصيدٌ

والاستعانة باللَّه والرضا بقضائه يسلى المصابين فى محنهم ومصائبهم. فهو قضاء اللَّه يبتلى به، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط وقد جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة.

يقول شريح القاضى: إنى لأحمد اللَّه فى المصائب أربع مرات:

الأولى: أحمده إذ لم يجعلها أعظم مما هى عليه.

الثانية: وأحمده إذ رزقنى الصبر عليها والاحتساب.

الثالثة: وأحمده إذ وفقنى للاسترجاع والثواب.

الرابعة: أنه لم يجعلها فى دينى فإن من كل شىء عوضًا إلا الدين.

وعلمك بأن الدنيا فانية زائلة وأنها ممر للآخرة، وجسر يوصل الحبيب إلى حبيبه ليهون عليك مصائب الدنيا، والأيام مراحل نقطعها إلى الآخرة، فإذا لم تمكن هذا الشعور من قلبك فلن تحزن لفقد حبيب فيها وقد سبق الحديث عن هذا الأمر فى طيات هذا البحث.

وإنما الدنيا لهو - تفاخر - عبث بين بنى آدم، موقوتة الأجل تصير حُطامًا تذروه الرياح .

وفى البلاء لطائف منها:

١- تذكر ذنوبك إذا وقعت المصبية والتوبة منها والاستغفار.

٢- زوال قسوة القلب وحلول الرقة مكانها، وانكسار النفس لله.

٣- يحثك فقد الأحبة على الرجوع إلى اللَّه.

٤- ويقطع البلاء رجاؤك فى المخلوقين ويجعل رجاءك فى اللَّه تعالى.

٥- الرقة لأهل البلاء.

٦- معرفة قدر النعمة فمن ذاق البلاء عرف طعم النعمة.

وبضدها تتميز الأشياء، وعند المصائب وفقد الأحبة يخفف من ألم المصاب (حسن التعزية ولطيفها) وهو ما شرعه الإسلام.

وقد مرّ بنا عزاؤه ﷺ فى أبى سلمة، وفى ابنته، وفى ابنه إبراهيم عليه السلام، فهذا هو قاض من قضاة بلخ توفيت أمه فجزع عليها فقال له معزٍ: إن كانت وفاتها عظة لك فعظّم اللَّه أجرك على موتها، وإن لم يكن

موتها عظة لك فعظم اللَّه أجرك على موت قلبك ، ثم قال: أيها القاضى إنك تحكم بين عابد اللَّه منذ ثلاثين سنة ، ولم يرد عليك أحدٌ حكمًا ، فكيف بحكم واحدٍ من الواحد الأحد ترده . فقال: تعزيت تعزيت . وكشف عنه ما هو فيه .

* * *

﴿غُرْبة ميتٍ﴾

لَيْسَ الْغَرِيبُ غَرِيبَ الشَّامِ والْيَمَنِ — إنَّ الْغَرِيبَ غَرِيبُ اللَّحْدِ والْكَفَنِ

إنَّ الْغَرِيبَ لَهُ حَقٌّ لِغُرْبَتِهِ — عَلَى الْمُقِيمِينَ فِى الْأَوْطانِ وَالسَّكَنِ

لَا تَنْهَرَنَّ غَرِيبًا حَالَ غُرْبَتِهِ — الدَّهْرُ يَنْهَرُهُ بِالذُّلِ وَالْمِحَنِ

سَفَرِى بَعِيدٌ وزادِى لَنْ يُبَلِّغَنِى — وَقُوَّتِى ضَعُفَتْ وَالْمَوْتُ يَطْلُبُنِى

وَلِى بَقايا ذُنُوبٍ لَسْتُ أَعْلَمُهَا — اللَّهُ يَعْلَمُهَا فِى السِّرِّ والْعَلَنِ

مَا أَحْلَمَ اللَّهُ عَنِّى حَيْثُ أَمْهَلَنِى — وَقَدْ تَمَادَيْتُ فِى ذَنْبِى وَيَسْتُرُنِى

تَمُرُّ سَاعَاتُ أَيَّامِى بِلَا نَدَم — وَلَا بُكاءٍ وَلَا خَوْفٍ وَلَا حَزَنِ

أَنَا الَّذِى يُغْلِقُ الْأَبْوَابَ مُجْتَهِدًا — عَلَى الْمَعَاصِى وَعَيْنُ اللَّهِ تَنْظُرُنِى

يَا زَلَّةً كُتِبَتْ فِى غَفْلَةٍ ذَهَبَتْ — يَا حَسْرَةً بَقِيتْ فِى الْقَلْبِ تَحْرِقُنِى

دَعْنِى أَنُوحُ عَلَى نَفْسِى وَأَنْدُبُهَا — وَأَقْطَعُ الدَّهْرَ بِالتَّفْكِيرِ وَالْحَزَنِ

كَأَنَّنِى بَيْنَ تِلْكَ الْأَهْلِ مُنْطَرِحٌ — عَلَى الْفِراشِ وَأَيْدِيهِمْ تُقَلِّبُنِى

كَأَنَّنِى وَحَوْلِى مَنْ يَنُوحُ وَمَنْ — يَبْكِى عَلَيَّ وَيَنْعَانِى وَيَنْدُبُنِى

وَقَدْ أَتَوْا بِطَبِيبٍ كَیْ يُعَالِجَنِى — وَلَمْ أَرَ الطِّبَّ هٰذا الْيَوْمَ يَنْفَعُنِى

وَاسْتَخْرَجَ الرُّوحَ مِنِّى فِى تَغَرْغُرِهَا — وَصَارَ رِيقِى مَرِيرًا حِينَ غَرْغَرَنِى

واشْتَدَّ نَزْعِى وَصَارَ الْمَوْتُ يَجْذِبُهَا — مِنْ كُلِّ عِرْقٍ بِلَا رِفْقٍ وَلَا هَوْنِ

وَسَلَّ رُوحِى وَظَلَّ الْجِسْمُ مُنْطَرِحًا — بَيْنَ الْأَهَالِى وَأُيدِيهِمْ تُقَلِّبُنِى

وَغَمَّضُونِى وَشَدُّوا الْحَلْقَ وانْصَرَفُوا — بَعْدَ الْإِياسِ وَجَدُّوا فِى شِرَى الكَفَنِ

وَسَارَ مَنْ كَانَ حِبَّ النَّاسِ فِى عَجَلٍ — نَحْوَ الْمُغَسِّلِ يَأْتِينِى لِيَغْسِلَنِى

وَأَضْجَعُونِى عَلَى الْأَلْوَاحِ مُنْطَرِحًا — وَقَامَ فِى الْحَالِ مِنْهُمْ مَنْ يُغَسِّلُنِى

وَأَسْكَبَ الْمَاءَ مِنْ فَوْقِى وَغَسَّلَنِى — غُسْلًا ثَلاثًا وَنَادَى الْقَوْمَ بِالْكَفَنِ

وَأَلْبَسُونِى ثِيَابًا لَا كِمَامَ لَهَا — وَصَارَ زَادِى حَنُوطِى حِينَ حَنَّطَنِى

وَأَخْرَجُونِى مِنَ الدُّنْيَا فَوَا أَسَفَا … عَلَى رَحِيلٍ بِلَا زَادٍ يُبَلِّغُنِى

وَحَمَّلُونِى عَلَى الْأَكْتَافِ أَرْبَعَةٌ … مِنَ الرِّجَالِ وَخَلْفِى مَنْ يُشَيِّعُنِى

وَقَدَّمُونِى إِلَى الْمِحْرَابِ وَانْصَرَفُوا … خَلْفَ الْإِمَامِ وَصَلَّى ثُمَّ وَدَّعَنِى

صَلَّوْا عَلَىَّ صَلَاةً لَا رُكُوعَ لَهَا … وَلَا سُجُودَ لَعَلَّ اللَّهَ يَرْحَمُنِى

وَأَنْزَلُونِى إِلَى قَبْرِى عَلَى مَهَلٍ … وَقَدَّمُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ يُلَحِّدُنِى

وَكَشَّفَ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِى لِيَنْظُرَنِى … وَأَسْبَلَ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنٍ وَقَبَّلَنِى

وَقَالَ هِلُّوا عَلَيْهِ التُّرْبَ وَاغْتَنِمُوا … فَضْلَ الثَّوَابِ وَكُلُّ النَّاسِ مُرْتَهِنٍ

وَهَالَنِى إِذْ رَأَتْ عَيْنَاىَ إِذْ نَظَرَتْ … مِنْ هَوْلِ مُطَّلِعٍ إِذْ كَانَ أَغْفَلَنِى

مِنْ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ مَا أَقُولُ لَهُمْ … قَدْ هَالَنِى أَمْرُهُمْ جِدًّا فَأَفْزَعَنِى

وَأَقْعَدُونِى وَجَدُّوا فِى سُؤَالِهِمُ … مَا لِى سِوَاكَ إِلٰهِى مَنْ يُخَلِّصُنِى

فَامْنُنْ عَلَىَّ بِعَفْوٍ مِنْكَ يَا أَمَلِى … أَمْنُنْ عَلَى تَارِكِ الْأَوْلَادِ وَالْوَطَنِ

تَقَاسَمَ الْمَالَ أَهْلِى بعدِى وانْصَرَفُوا … وَصَارَ وِزْرِى عَلَى ظَهْرِى يُثَقِّلُنِى

وَاسْتَبْدَلَتْ زَوْجَتِى بَعْلًا لَّهَا بَدَلِى … وَحَكَّمَتْهُ عَلَى الْأَمْوَالِ وَالسَّكَنِ

وَصَيَّرَتْ ابْنِى عَبْدًا لِيَخْدُمَهُ … وَصَارَ مَالِى لَهُمْ حِلًّا بِلَا ثَمَنِ

فَلَا تَغُرَّنَّكَ الدُّنْيَا وَزُخْرُفُهَا … انْظُرْ لِأَفْعَالِهَا بِالْأَهْلِ وَالْوَطَنِ

وانْظُر إِلَى مَنْ حَوَى الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا … هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ الْحِنْطِ وَالْكَفَنِ؟

خُذِ الْقَنَاعَةَ مِنْ دُنْيَاكَ وَارْضَ بِهَا … لَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا إِلَّا رَاحَةُ الْبَدَنِ

يَا زَارِعَ الْخَيْرِ تَحْصُدْ بَعْدَهُ ثَمَرًا … يَا زَارِعَ الشَّرِّ مَوْقُوفٌ عَلَى الرَّهَنِ

يَا نَفْسُ كُفِّى عَنِ الْعِصْيانِ وَاكْتَسِبِى … فَضْلًا جَمِيلًا لَعَلَّ اللَّهَ يَرْحَمُنِى

يَا نَفْسُ وَيْحَكِ تُوبِى وَاعْمَلِى حَسَنًا … عَسَى تُجَازَيْنَ بَعْدَ الْمَوْتِ بِالْحَسَنِ

ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ سَيِّدِنَا … مَا ضَأْضَأَ الْبَرْقُ فِى شَامٍ وَفِى يَمَنِ

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مُمْسِينَا وَمُصْبِحِنَا … بِالْخَيْرِ وَالْعَفْوِ وَالْإِحْسَانِ وَالْمِنَنِ

الفهرس